

وَقَدْ كَرَّمْنَا الْإِسْلَامَ عَلَى الْكَافِرِينَ

THE PRINCE AL-AZI TRUST
FOR QURANIC THOUGHT



و بحمد الله

الانتماء الحضاري

للغرب؟ .. أم الاسلام؟



الانتماء الحضاريُّ

للغرب؟ .. أم الإسلام؟

تأليف

د. محمد عمارة



اسم الكتاب: الانشاء الحضاري للغرباء - أم الإسلام؟

المؤلف: د محمد عمارة

إشراف عام: داليا محمد إبراهيم

تاريخ النشر: الطبعة الأولى - يناير 2009م

رقم الإيداع: 2008 / 7168

التوزيع الدولي: ISBN 977-14-4273-2

الإدارة العامة للنشر: 21 بن أحمد عرابي - المهندسين - الجيزة
ت: 02/33462376 - فاكس: 02/33472864 (02)33466434 - ص ب 21 إسنا
البريد الإلكتروني لإدارة العامة للنشر: publishing@nahdetmisr.com

المطابع: 89 المنطقة الصناعية الرابعة - السادس من أكتوبر
ت: 02/38330287 - 02/38330289 - فاكس: 02/38330296
البريد الإلكتروني للمطابع: press@nahdetmisr.com

مركز التوزيع الرئيسي: 18 بن كامل حديفي - الفيحة -
القاهرة - ص ب 96 الفيحة - القاهرة
ت: 02/25909827 - 02/25908895 - فاكس: 02/25903395

مركز خدمة العملاء: 02/25909827
البريد الإلكتروني لخدمة العملاء:

customerservice@nahdetmisr.com

البريد الإلكتروني لإدارة البيع: sales@nahdetmisr.com

مركز التوزيع بالإسكندرية: 408 طريق الحرية (رشدي)
ت: 03/5462090

مركز التوزيع بالمنصورة: 13 شارع المستشفى الدولي التخصصي
- متفرج من شارع عبد السلام عارف - مدينة السلام
ت: 050/2221866

موقع الشركة على الإنترنت: www.nahdetmisr.com



أسسها الشيخ محمد إبراهيم سنة 1938

جميع الحقوق محفوظة © لشركة نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع

لا يجوز طبع أو نشر أو تصوير أو تخزين أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة إلكترونية أو ميكانيكية أو بالتصوير أو خلاف ذلك إلا بإذن كتابي صريح من الناشر.

تقديم

الانتماء الحضاري بالنسبة للأمم والشعوب، كالنَّسَب بالنسبة للأفراد..

وكما أن الفرد الذي يجهل نسبه.. أو تغيم عليه روابط النسب التي تحدد انتماءه إلى أهله وذويه، يدخل في عداد اللقطاء.. فكذلك حال الأمة إذا هي انتسبت إلى غير هويتها، أو فقدت «البصمة الحضارية» التي تمثل السمات والقسمات المعبرة عن تميزها وامتيازها عن غيرها من الأمم والشعوب.. فتصبح - عندئذ - أمة لقيطة «تابعة» ممسوخة.. فاقدة لعزة الخصوصية والاختصاص.. وميزة التميز والامتياز..

ولقد بلغ الاهتمام بهذا الأمر في النسق الفكري الإسلامي أن أصبح الحفاظ على النسب واحداً من المقاصد الخمسة الكبرى للشريعة الإسلامية.. مثل الحفاظ على النفس والدين والعقل والمال.. ولأن الإسلام دين الفطرة.. ولأن الفطرة الإنسانية السوية تنزع إلى الحفاظ على النسب والانتماء، كان الحفاظ على النسب الصريح فطرة عربية قديمة، سبقت ظهور الإسلام، حتى صار «حفظ الأنساب» فناً من فنون الحياة العربية، يتخصص فيه المتخصصون في القبائل والحواضر قبل شروق شمس الإسلام..

ثم انتقلت هذه القطرة العربية إلى الشريعة الإسلامية، فغدت مقصدًا من مقاصدها الخمسة الكبرى.. وكتبت في تراث الإسلام الموسوعات الضخمة التي تحدد الأنساب، وتحافظ على انتماء الأفراد والقبائل والجماعات..

ولقد زادت الشريعة الإسلامية في إحكام الحفاظ على فطرة وتميز النسب وصراحته، عندما شددت على تحريم الزنا - الذي يؤدي إلى اختلاط الأنساب.. ويفرز اللقطاء - وعندما منعت التبني الذي يؤدي - هو الآخر - إلى لون من الاختلاط والشبوع في الأنساب.. فكما أن للرجل - في جوفه - قلبًا واحدًا.. وكما أن الزوجة لا تكون أمًا.. كذلك الأدياء لا يمكن أن يكونوا أبناء صرحاء بأي حال من الأحوال ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمْ اللَّائِي تَظَاهَرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكَ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ (٤) ادْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فإِخْوَانَكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ...﴾ [الأحزاب 4، 5].

وكما جعلت الشريعة الإسلامية الحفاظ على النسب واحدًا من مقاصدها الخمسة العظمى.. جعلت الجهاد - بما في ذلك الجهاد القتالي - في سبيل الدفاع عن الأهل - الذين ينتسب إليهم الإنسان - بابًا من أبواب الشهادة في سبيل الله!.. فجاء في الحديث النبوي الشريف: «من قتل دون ماله فهو شهيد، ومن قتل دون دينه فهو شهيد، ومن قتل دون دمه فهو شهيد، ومن قتل دون أهله فهو شهيد» [رواه الترمذي].

فالحفاظ على الأهل.. والحفاظ على الدم - وهو أهل - كالحفاظ على الدين - الذي هو أعز ما يُطلب - وكالحفاظ على المال الذي هو زينة الحياة الدنيا.. وبه تستقيم الحياة - جميعها أبواب للحفاظ على التميز والامتياز.. والفطرة السوية للناس الأسوياء..

إن النسب - في الفطرة الإنسانية السوية - سبيل للولاء والانتماء.. ولهذا شبّهت الشريعة الإسلامية - في تطبيقاتها النبوية - الولاء بالنسب، عندما جاءت الأحاديث النبوية الشريفة لتقول: «الولاء لُحمة كُلِّ حمة النَّسَبِ» [رواه الدارمي].. فالنسب هو لُحمة الانتماء إلى الأهل، به يتميز الإنسان ويمتاز.. وكذلك حال الانتماء الحضاري بالنسبة للأمم والشعوب.

* * *

وإذا كان فقيه الشريعة الإسلامية، وأبو القانون المدني الدكتور عبد الرزاق السنهوري باشا [1313 - 1391هـ، 1895 - 1971م] قد قال:

«إن الشرق بالإسلام، والإسلام بالشرق.. فهما شيء واحد، وإذا تحدثت عن أحدهما فكأنني أتحدث عن الآخر.

والإسلام دين ومدنية.. وإن أمتنا ذات مدنية أصيلة، وليست الأمة الطفيلية التي ترقع لمدينتها ثوبنا من فضلات الأقمشة التي يلقيها الخياطون!»⁽¹⁾

(1) [إسلاميات السنهوري باشا] دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة. طبعة دار الوفاء 2006م.

فإن قوى الهيمنة الغربية قد سعت إلى محو انتماء أمتنا الحضاري إلى الإسلام، وعملت على إلحاقنا بالمركز الحضاري الغربي؛ لتجعلنا - في الحضارة - تابعين ولقطاء!

وهذا السعي الغربي لطمس هويتنا الحضارية، وإلحاقنا بالمركز الحضاري الغربي، هو سعي قديم، وموغل في أعماق التاريخ!

■ فقبل الإسلام، غزا الغرب الإغريقي والروماني والبيزنطي الشرق لمدة عشرة قرون - من «الإسكندر الأكبر» [356 - 323 ق.م] - في القرن الرابع قبل الميلاد - إلى «هرقل» [610 - 641م] - في القرن السابع للميلاد -.

وإبان هذه القرون العشرة مارس الغرب في الشرق كل ألوان القهر الحضاري.. ففرض الثقافة الهلينية بدلاً من الثقافات الوطنية الشرقية.. وفرض الحروف اليونانية على اللغة الهيروغليفية المصرية.. واضطهد النصرانية الشرقية في عهد وثنيته.. واستمر اضطهاده لها حتى بعد أن تنصر عندما انحاز للمذهب الملكاني ضد النصرانية اليعقوبية الشرقية.

ولقد كان الهدف من وراء هذا «التغريب» والقهر الحضاري هو مسخ الخصوصية الحضارية الشرقية، وتحقيق تبعية الشرق للحضارة الغربية الغازية، ليتأبد النهب الاستعماري لخيرات الشرق، الذي هو الهدف الأكبر لهذا الاستعمار..

■ فلما ظهر الإسلام.. وأزالت فتوحاته التحريرية قوى الهيمنة

الغربية عن أوطان الشرق وضمائر شعوبه.. عاد هذا الغرب - مرة ثانية - يريد اختطاف الشرق من هذا التحرير الإسلامي.. فشن حروبه الصليبية التي دامت قرنين من الزمان [486 - 690هـ، 1096 - 1291م].

■ فلما نهضت دول الفروسية الإسلامية - الزنكية [521 - 648هـ، 1170 - 1250م].. والأيوبية [567 - 648هـ، 1171 - 1250م].. والمملوكية [648 - 784هـ، 1250 - 1382م] - بإزالة القلاع الصليبية، وحررت الشرق - مرة ثانية - من الاستعمار الاستيطاني الصليبي.. جاء الغرب الاستعماري - مرة ثالثة - في غزوته الحديثة: ليعيد المحاولة من جديد - محاولة المسخ الحضاري للشرق، والنسخ لنسبه الإسلامي، وإحاقه - حضارياً - بالمركز الغربي.. الذي يريدونه مركزاً حضارياً وحيداً لكل الأمم والشعوب!

■ ولقد عن لهذا الغرب الاستعماري، إبان الحرب الاستعمارية العالمية الثانية [1939 - 1945م] أن يصكّ للشرق العربي الإسلامي اسماً جديداً ينفي هويته العربية الإسلامية، ويجعل منه مجرد «جغرافيا» تسمى باسم موقعها الجغرافي من المركز الغربي، ليكون هذا الشرق بمثابة الرقيق الذي يُعرف ويُعرف بحسب علاقته بالسيد الذي يتبعه! - ف«الجغرافيا» الأقرب للمركز الغربي هي «الشرق الأدنى».. و«الجغرافيا» الأبعد من المركز الغربي هي «الشرق الأقصى».. و«الجغرافيا»

الواقعة بينهما هي «الشرق الأوسط»... وذلك دونما اعتبار أو إشارة إلى هوية المكان والأمة التي تحيا في هذا المكان.. هوية العروبة والإسلام!..

وأيضًا.. ليسهل قبول الجسم الغريب عن الهوية الحضارية العربية الإسلامية - الكيان الصهيوني - الذي زرعه الغرب الاستعماري في قلب وطن العروبة وعالم الإسلام!..

* * *

إذن.. فهي معركة «قديمة.. جديدة»، تلك التي دارت - ولا تزال دائرة - حول «نسب» هذه الأمة.. وانتمائها الحضاري.. للغرب هذا الانتماء؟.. أم إلى الإسلام؟..

وتلك هي الرسالة التي تقدمها صفحات هذا الكتاب.. الذي نسأل الله أن ينفع به.. إنه - سبحانه - خير مسئول وأكرم مجيب.

د. محمد حمادة

القاهرة في: محرم 1429هـ

فبراير 2008م

أولى محاولات الاحتواء والاختراق

عندما قاد «بونابرت» [1769 - 1821م] الحملة الفرنسية على مصر [1213هـ - 1798م] كانت تراوده أحلام إقامة الإمبراطورية الشرقية، التي تعيد - في العصر الحديث - مشروع «الإسكندر الأكبر» [356 - 323ق.م] - في القرن الرابع قبل الميلاد.

وكان يدرك أن سر بقاء ذلك الاحتلال الغربي - الإغريقي.. الروماني.. البيزنطي - للشرق عشرة قرون، إنما هو اعتماد هذا المشروع على «الثقافة.. والفكر» مع السلاح - أي الاعتماد على «القوة الناعمة» مع «القوة الخشنة»، في محاولة لاحتلال العقل الشرقي وتطويعه واحتوائه.. وذلك لتأييد وتأييد احتلال الأرض ونهب الثروات.. فإذا اتحدت هوية الشعوب المستعمرة مع هوية المستعمرين، وإذا أصبح انتماء هذه الشعوب المستعمرة إلى حضارة المستعمرين، هنا يكون الفتح الأكبر، الذي يذيب المستعمرين في المستعمرين، فتتحقق كل مقاصد الاستعمار، دونما حاجة إلى الجيوش والنفقات!.

ولذلك، سعت الغزوة الإغريقية القديمة في إحلال ثقافتها الهلينية وفلسفتها اليونانية وقانونها الروماني ومذهبها النصراني الملكاني محل مقومات الهوية الشرقية، فلما رفضت شعوب الشرق ذلك الإحلال والنسخ والمسح والتشويه لهويتها الحضارية، كان

القهر الحضاري والثقافي والسياسي والديني والغوي الذي مارسه هذه الغزوة في الشرق لأكثر من عشرة قرون.

بل لقد حاول «بونابرت» تقليد «الإسكندر الأكبر» في التقرب إلى دين الأغلبية، واختراق ثقافتها.. فكما تقرب «الإسكندر» إلى كهنة «أمون»، وزار معابدهم، وقدم لها القرابين.. لبس «بونابرت» الأزياء الشرقية.. وشارك في الاحتفال بالمولد النبوي.. بل وأعلن أنه مسلم هو وجيشه.. بل أكثر إسلاماً من المماليك!! وقال في الإعلان الأول للمصريين:

«إن الفرنساوية مسلمين خالصين، وأنه - [أي بونابرت] - أكثر من المماليك، يعبد الله - سبحانه وتعالى - ويحترم نبيه محمد، والقرآن العظيم»!!⁽¹⁾.

فلما لم تنطل هذه الحيلة على الأغلبية المسلمة في مصر.. وأعلن مؤرخ العصر الشيخ عبد الرحمن الجبرتي [1167 - 1237هـ / 1754 - 1822م] - باسم علماء الأزهر - مقالته الشهيرة التي جرد فيها «بونابرت» وجيشه لا من الإسلام فحسب، وإنما من كل دين.. لأنهم علمانيون لا دينيون ووضعيون ماديون دهيون.. وقال عن هذا «الإسلام البونابرتي»:

«لا شك أن هذا خبل في العقل، وغلو في الجهل، أي عبادة - فضلاً عن كثرتها - مع كفر غطى على فؤاده، وحجبه عن الوصول إلى رشاده؟! ولو احترم نبينا لاحترام أمته.. إن إسلامهم نصب..

(1) د أحمد حسين الصاوي [المعلم يعقوب بين الحقيقة والأسطورة] - الملاحق ص 105-108 طبعة القاهرة 1986م.

ولقد خالفوا النصارى والمسلمين، وهم دهرية معطلون، وللمعاد والحشر منكرون، وللنبوة والرسالة جاحدون!»⁽¹⁾

لذلك.. ركز الفرنسيون على الأقليات - من نصارى القبط والشوام والأروام - وكان «بونابرت» قد أعلن - وهو في طريقه من «مرسيليا» إلى «الإسكندرية» - أنه سيجنّد 20,000 من أبناء الأقليات الدينية في الشرق، ليتخذ منهم ركائز لمشروعه الإمبراطوري، وليغير بواسطتهم هوية الشرق.. فبالتغريب، وإحلال النموذج الغربي محل النموذج الإسلامي تتم التبعية والإلحاق والذوبان.

وفي هذا الإطار التقط الجيش الفرنسي مغامراً نصرانياً اسمه «المعلم يعقوب حنا» [1745 - 1801م] - الذي يسميه الجبرتي «يعقوب اللعين»! - فجنّد نحو ألفين من شباب القبط بصعيد مصر.. وشارك «بفيلقه القبطي» مع الجيش الفرنسي - الذي قاده الجنرال «ديزيه» في فتح صعيد مصر!.. وتدرج هذا اليعقوب اللعين في صفوف الجيش الفرنسي.. فمنحه الجنرال «كليبر» [1753 - 1800م] رتبة «كولونيل».. وأنعم عليه الجنرال «مينو» [1750 - 1810م] برتبة «جنرال» في مارس 1801م!⁽²⁾

ولقد مكنت الحملة الفرنسية لهذه الطغمة المعادية لهوية الأمة، ولانتمائها الحضاري، كي تلحق مصر والشرق بفرنسا

(1) الجبرتي [مظهر التقديس بزوال دولة الفرنسيين] ص34. تحقيق حسن محمد جوهر، عمر الدسوقي - طبعة القاهرة 1969م.

(2) الجبرتي [عجائب الآثار في التراجم والأخبار] ج5 ص148، 149 - تحقيق حسن محمد جوهر، عمر الدسوقي، السيد إبراهيم سالم - طبعة القاهرة 1965م.

والنموذج الحضاري الغربي.. ففي «ديوان المشورة» - الذي أقامه «بونابرت» - كانت لهذه الطغمة أغلبية المقاعد.. كما كانت لها السيطرة الكاملة على جهاز الإدارة والاقتصاد وجبايات الأموال! ⁽¹⁾

صنع معهم «بونابرت» ذلك، لا لأنه كان يحترمهم، وإنما لأنه يستخدمهم في تحقيق مقاصده - احتلال الأرض.. ونهب الثروات.. وتحويل الانتماء الحضاري إلى الغرب، بدلاً من الشرق والإسلام... وتشهد على هذه الحقيقة رسالة «بونابرت» التي كتبها إلى الحاكم الفرنسي لإقليم «الشرقية» - بدلتا مصر - الجنرال «رينيه» في 10 سبتمبر 1798م.. والتي قال فيها عن نصارى القبط في مصر:

«إنهم لنائم في البلاد، ولكن ينبغي مراعاتهم لأنهم الوحيدون الذين في يدهم مجمل الإدارة للبلاد، لقد حصلت منهم على سجلات هائلة حول قيمة الضرائب المفروضة»!!

كما كتب «بونابرت» إلى «المعلم جرجس الجوهري» [ت 1810م] - زميل المعلم يعقوب - جواباً على خطاب «الأمة القبطية» إلى «بونابرت» قال فيه:

«تسلمت - أيها السيد - الخطاب الذي وجهته الأمة القبطية إليّ. سوف يسعدني أن أحميها. لكن لديّ الحق - بدون شك - أن أطلب أبناءها بالكثير من الحماسة والإخلاص في خدمة

(1) المصدر السابق ج 5 ص 4.

الجمهورية الفرنسية.. وأنوه ببطيريركم، الذي أعرف فضائله وحسن نواياه، وأنوه بحماستكم ومساعدتكم، وأتمنى أيضا أن أمدح من الأمة القبطية كلها»⁽¹⁾..

لقد جاهرت هذه الطغمة - التي سقطت في حبال الغواية الاستعمارية - بالولاء لفرنسا وجيشها المحتل لمصر.. حتى لقد احتفلوا - علنا - بانتصارات هذا الجيش على المصريين والعرب والمسلمين!.. وكما يقول الجبرتي.. فلقد احتفلوا بانتصار الجيش الفرنسي على مدينة «غزة» [1312هـ 1799م]..

«فأظهر النصارى الفرح والسرور، في الأسواق والدور، وأولموا في بيوتهم الولائم، وغيروا الملابس والعمائم، وتجمعوا للهو والخلاعة، وزادوا في الشناعة»⁽²⁾..

كذلك مكنت الإدارة الاستعمارية الفرنسية لهذه الطغمة لتعمل على تغريب مصر، وسلخها عن هويتها العربية الإسلامية، وعزلها عن محيطها العربي والإسلامي، والحاقها بفرنسا والنموذج الحضاري الغربي..

(1) عادل جندي - مقال عن مراسلات بوناپرت - عنوانه (المخططات الخطيرة) - صحيفة (وطني) في 2-7-2006. [ونحن نلاحظ استخدام مصطلح «الأمة القبطية» في هذه المراسلات، لتمييز النصارى الأرثوذكس في مصر - تمييزهم عن الشعب المصري.. وهو المصطلح الذي درج استخدامه بعد ذلك لدى أصحاب المشاريع الطائفية الانفصالية.. الأمر الذي يستحق الدرس: هل كانت هذه هي بداية استخدام هذا المصطلح؟ أم أن لاستخدامه سوابق قبل هذا التاريخ؟!].

(2) [مظهر التقديس يزوال دولة الفرنسيين] ص 117.

« فلقد عهد الجنرال « كليبر » - الذي تولى قيادة الحملة بعد « بونابرت » - إلى المعلم يعقوب حنا بأن يفعل بالمسلمين ما يشاء.. حتى تناولت النصارى من القبط ونصارى الشوام على المسلمين بالسب والضرب، ونالوا منهم أغراضهم، وأظهروا حقدهم، ولم يبقوا للصلح مكاناً! وصرخوا بانقضاء ملة المسلمين وأيام الموحدين»⁽¹⁾!! .. « ولقد ترفع أسافل النصارى من القبط والشوام والأروام واليهود - [اعتماداً على المستعمر] - فركبوا « الخيول » وتقلدوا السيوف بسبب خدمتهم للفرتسيس، ومشوا بالخيول، وتلفظوا بفاحش القول. واستذلوا المسلمين، مع عدم اعتبارهم للدين، إلى غير ذلك مما لا يحيط به الحساب، ولا يُسطر في كتاب، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم»⁽²⁾!

نعم.. لقد أعلنوا سلخ مصر عن هويتها العربية الإسلامية.. وطي صفحة انتمائها الحضاري الإسلامي.. أعلنوا: « انقضاء ملة المسلمين وأيام الموحدين»!

فكانت أول محاولة لتغيير الهوية والبوصلة والخريطة تحاولها أقلية من الأقليات في بلد إسلامي في عصرنا الحديث! ولقد سموا هذا الذي حاولوه «استقلالاً»!.. لكنه كان «استقلالاً» عن الذات والهوية والتاريخ والانتماء الحضاري

(1) [عجائب الآثار] ج5 ص134.

(2) [مظهر التقديس] ص112.

بتجارة مصر الخارجية، ويضمن لها بالتالي أن يكون لها ما تريد من نفوذ فيها. إن مصر المستقلة لن تكون إلا موالية لبريطانيا. ومن ثم فعلى بريطانيا أن تعمل على استقلال مصر، وهذا الاستقلال لن يكون نتيجة وعي الأمة، ولكنه سيكون نتيجة تغيير جبري تفرضه القوة القاهرة على قوم مسالمين جهلاء - [!!!] - وللدفاع عن هذا الاستقلال.. فإن المصريين يمكنهم أن يعتمدوا على قوات أجنبية تعمل لحسابهم، يتراوح عددها بين 12,000 و15,000 جندي، يكفون تماماً لصد الترك عن الصحراء، ولسحق المماليك داخل مصر.. إن أي حكومة في العالم أفضل من الاستبداد التركي⁽¹⁾..!

فالوصية «اليعقوبية» - وصية يعقوب اللعين - هي باستقلال مصر عن ذاتها الحضارية، وهويتها الإسلامية، وانتمائها العربي.. وإخضاعها لنفوذ إنجلترا، لتكون موالية لبريطانيا التي تستأثر بتجارتها الخارجية.. هذا «الاستقلال» الذي تفرضه القوات الأجنبية على المصريين «المسالمين الجهلاء» - الذين يدفعون نفقات الجنود الأجانب الذين يحرسون «الاستقلال» لحساب الإنجليز!!

وبعد هلاك المعلم يعقوب على السفينة الإنجليزية التي حملته مع جيوش الحملة الفرنسية.. ذهب أتباعه الذين صحبوه إلى (1) [المعلم يعقوب بين الحقيقة والأسطورة] ص123-125. ملحق رقم6.

«مرسيليا» - بقيادة «بصر أفندي» - وكتبوا إلى «بونابرت» يعرضون عليه العمل على تغيير انتماء مصر الحضاري وهويتها العربية الإسلامية. وذلك بإحلال القانون الفرنسي محل الشريعة الإسلامية في مصر. فبعد حديثهم عن «الولاء لبونابرت»، تعهدوا «بالتشريع لمصر التشريعات التي ترضى عنها فرنسا!».. وقالوا لبونابرت:

«إن الوفد المصري، الذي فوضه المصريون الباقون على ولائهم لك، سيشرع لمصر ما ترضاه لها من نظم عندما يعود إليها من فرنسا»⁽¹⁾.

كما كتبوا إلى وزير الخارجية الفرنسي «تاليران» [1745 - 1838م] عارضين تسخير الكنيسة المصرية - الأرثوذكسية - في تسهيل اختراق الكنيسة الفرنسية - الكاثوليكية - لإفريقيا. وهو المشروع الذي أخفق في تحقيقه الملك الفرنسي «لويس الرابع عشر» [1638 - 1715م].. فقالوا:

«إن الجمهورية الفرنسية اليوم - إذا أرادت - يمكنها - عن طريق الأمة المصرية التي ستكون موالية لها - مد نفوذها نحو أواسط إفريقيا. وبذلك تحقق ما عجزت عن تحقيقه الملكية الفرنسية»⁽²⁾.

* * *

(1) المصدر السابق، ص 129، 130 - ملحق رقم 7.

(2) المصدر السابق، ص 131، 132 - ملحق رقم 8 - [وتاريخ هذه المذكرة 23 سبتمبر 1801م - 15 جمادى الأولى 1216هـ].

تلك إشارات إلى وقائع أولى محاولات تغيير هويتنا الحضارية الإسلامية في العصر الحديث.. وذلك بإحلال التشريع والثقافة والانتماء الغربي محل مقومات الهوية الحضارية الإسلامية.. ليصبح الغرب هو القبلة.. والنموذج.. والأسوة.. فتتأبد التبعية والإلحاق والذوبان والنهب الاستعماري للخيرات.

* * *

الانتماء الحضاري عند رفاة الطهطاوي

وإذا كان هذا المشروع «اليقوبي اللعين» قد قُبر.. وطوته اليقظة المصرية التي قادها محمد علي باشا الكبير [1184 - 1265هـ 1770 - 1849م].. والتي أثمرت مصر الحديثة.. فإن أحلام التغريب والإلحاق لم تغادر عقول المستعمرين ومشاريعهم ومحاولاتهم في يوم من الأيام..

وإذا كانت مصر الحديثة قد سعت لتجديد مدينتها الإسلامية بالعلوم التطبيقية الغربية - التي هي «مشترك إنساني عام» - وذات أصول وجزور إسلامية - فلقد حاول الغرب دائماً وأبداً أن يدس قانونه وثقافته وفلسفته الوضعية اللادينية.. وأن يحتل بها العقل المصري والعربي والمسلم، لتحقيق التغريب للهوية والتغيير للانتماء الحضاري..

ولقد كان التمييز بين العلوم التطبيقية والطبيعية والدقيقة - المحايدة - وبين الثقافة والفلسفة والإنسانيات، هو ميدان المعركة التي دارت بين العقل المسلم والعقل الاستعماري الغربي على امتداد سنوات الاحتكاك الحضاري طوال ذلك التاريخ.. منذ الحملة الفرنسية وحتى هذه اللحظات..

■ فرفاة رافع الطهطاوي [1216 - 1290هـ 1801 - 1873م] - الذي كان أول عين للشرق على الغرب.. والذي طبع ثقافة مصر

الحديثه بطابعه.. حتى قال أمير الشعراء أحمد سوقي [1285 -
1351 هـ - 1868 - 1932 م] مخاطباً ابنه:

يا بن من أيقظت مصرًا معارفه

أبوك كان لأبناء البلاد أبا

رفاعة هذا - عندما ذهب إلى باريس سنة 1826م.. وعندما
واجه في مصر - بعد عودته - بواكير تسلل القانون الفرنسي
الوضعي إلى المحاكم التجارية في المنازعات مع التجار
الأجانب.. بعد زيادة المخالطات والمعاملات -.. نراه قد ميز بين
علوم الغرب التطبيقية - التي سماها العلوم الحكيمية المدنية -
وبين ديانة الغرب الوضعية - دين الحداثة الوضعي - وفلسفته
اللا دينية.. وقانونه الوضعي وتحسينه وتقبيحه بالعقل المجرد -
بعيداً عن الشرع -.. فدعا إلى التلمذ على الغرب في العلوم
التطبيقية العملية المحايدة.. مع رفض ثقافته وفلسفته وقانونه
الوضعي.. واختيار البديل الإسلامي، مع الدعوة إلى تجديده
ليتوافق مع الوقت والحال..»

نعم.. صنع الطهطاوي ذلك عندما وصف باريس - وكل المدن
الغربية - ذلك الوصف العبقري الذي ميز فيه بين «المشترك
الإنساني العام» وبين «الخصوصية الحضارية» المتمثلة في
الدين والفلسفة والثقافة.. فقال:

أيوجد مثل باريس ديار

شموس العلم فيها لا تغيب

أما هذا، وحقكم، عجيب!

فهذه المدينة، كباقي مدن فرنسا وبلاد الإفرنج العظيمة، مشحونة بكثير من الفواحش والبدع والضلالات، وإن كانت من أحكم بلاد الدنيا وديار العلوم البرانية.

إن أكثر أهل هذه المدينة إنما له من دين النصرانية الاسم فقط، حيث لا يتبع دينه، ولا غيرة له عليه، بل هو من الفرق المحسنة والمقبحة بالعقل، أو فرقة من الإباحيين الذين يقولون: «إن كل عمل يأذن فيه العقل صواب»، ولذلك فهو لا يصدق بشيء مما في كتب أهل الكتاب لخروجه عن الأمور الطبيعية».

وبعد رفض الطهطاوي لهذا النموذج الغربي - الوضعي اللاديني - أعلن الانحياز للنموذج الإسلامي والمرجععية الحضارية الإسلامية - في الانتماء.. وفي الإصلاح والنهوض - فقال:

«إن تحسين النواميس الطبيعية لا يعتد به إلا إذا قرره الشرع.. والتكاليف الشرعية والسياسية التي عليها مدار نظام العالم، مؤسسة على التكاليف العقلية الصحيحة الخالية من الموانع والشبهات، لأن الشريعة والسياسة مبنيتان على الحكمة المعقولة لنا أو التعبدية التي يعلم حكمتها المولى سبحانه. وليس لنا أن نعتد على ما يحسنه العقل أو يقبحه إلا إذا ورد الشرع بتحسينه أو تقبيحه.

والذي يرشد إلى تركية النفس هو سياسة الشرع.. ومرجعها الكتاب العزيز.. الجامع لأنواع المطلوب من المعقول والمنقول، مع ما اشتمل عليه من بيان السياسات المحتاج إليها في نظام أحوال الخلق، كشرع الزواجر المفضية إلى حفظ الأديان، والعقول، والأنساب، والأموال، وشرع ما يدفع الحاجة على أقرب وجه يحصل به الغرض، كالبيع والإجارة والزواج وأصول أحكامه.

فكل رياضة لم تكن بسياسة الشرع لا تثمر العاقبة الحسنى. ولا عيرة بالنفوس الفاصرة الذين حكّموا عقولهم بما اكتسبوه من الخواطر التي ركنوا إليها تحسبًا وتقبيحًا، وظنوا أنهم فازوا بالمقصود بتعدي الحدود.. فينبغي تعليم النفوس السياسة بطرق الشرع، لا بطرق العقول المجردة. ومعلوم أن الشرع الشريف لا يحظر جلب المنافع ولا درء المفساد، ولا ينافي المتجددات المستحسنة التي يخترعها من منحهم الله العقل وألهمهم الصناعة.

وان المعاملات الفقهية لو انتظمت وجرى عليها العمل لما أخلت بالحقوق، بتوفيقها على الوقت والحالة.

ومن أمعن النظر في كتب الفقه الإسلامية ظهر له أنها لا تخلو من تنظيم الوسائل النافعة من المنافع العمومية.

إن بحر الشريعة الغراء، على تفرّع مشاريعه، لم يغادر من أمهات المسائل صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها وأحياها بالسقي

والري، ولم تخرج أحكام السياسة عن المذاهب الشرعية.. لأنها أصل، وجميع مذاهب السياسات عنها بمنزلة الفرع.

وان مدار سلوك جادة الرشاد والإصابة منوط - بعد ولي الأمر - بهذه العصابة - [عصبة طلاب الأزهر وعلمائه] - التي ينبغي أن تضيف إلى ما يجب عليها من نشر:

أ - الستة الشريفة، ورفع أعلام الشريعة المنيفة.

ب - معرفة سائر المعارف البشرية «المدنية» التي لها مدخل في تقدم الوطنية⁽¹⁾.

فكان مشروع الطهطاوي - الذي اصطبغت به مصر الحديثة - دفاعاً عن الانتماء الحضاري للإسلام.. ورفضاً للنموذج الوضعي واللا ديني للحضارة الغربية.

* * *

(1) [الأعمال الكاملة لرفاعة الطهطاوي] ج1 ص544، 369، 370، 533 وج2 ص159، 160، 79، 32، 477، 386، 387. دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة، طبعة بيروت 1973م.

الإحياء الإسلامي عند جمال الدين الأفغاني

■ وعندما زاد عدد الأجنبي بمصر والشرق.. وزاد نفوذهم - بعد عصر محمد علي - في دوائر الفكر والثقافة والسياسة والإعلام.. وعلا صوت المؤسسات الثقافية والإعلامية التي أقامها خريجو مدارس الإرساليات التنصيرية ببلدان - والتي رعتها سلطات الاحتلال - عندما علا صوتها بإحلال النموذج الغربي محل النموذج الإسلامي.. كان تصدي جمال الدين الأفغاني [1254 - 1314هـ، 1838 - 1897م] وتلميذه الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده [1266 - 1323هـ، 1849 - 1905م] لهذه الدعوات..

فكتب الأفغاني عن ضرورة الانتماء إلى الهوية الإسلامية، والنهوض بواسطة النموذج الإسلامي.. ونبه على خطأ وخطر أن نقلد أوروبا فنبدأ من حيث انتهى الأوربيون.. وقال:

«إنه لا ضرورة في إيجاد المنفعة إلى اجتماع الوسائط وسلوك المسالك التي جمعها أو سلكها بعض الدول الغربية، ولا ملجئ للشرقي في بدايته أن يقف موقف الغربي في نهايته، بل ليس له أن يطلب ذلك، وفيما مضى أصدق شاهد على أن من طلبه - [من دعاة التحديث على النمط الغربي] - فقد أوقر - [أعجز] - نفسه وأمتة وقراً وأعجزها وأعوزها.

لقد شيد العثمانيون عدداً من المدارس على النمط الجديد، وبعثوا بطوائف من شبانهم إلى البلاد الغربية ليحملوا إليهم ما يحتاجون إليه من العلوم والمعارف والآداب، وكل ما يسمونه «تمدناً». وهو في الحقيقة تمدن للبلاد التي نشأ فيها على نظام الطبيعة وسير الاجتماع الإنساني.

فهل انتفع المصريون والعثمانيون بما قدموا لأنفسهم من ذلك، وقد مضت عليهم أزمان غير قصيرة؟!

نعم، ربما وجد بينهم أفراد يتشوقون بألغاز الحرية والوطنية والجنسية - [القومية] وما شاكلها. وسموا أنفسهم زعماء الحرية! ومنهم آخرون قلبوا أوضاع المباني والمسكن وبدلوا هيئات المأكل والملابس والفرش والأنيّة، وسائر الماعون، وتنافسوا في تطبيقها على أجود ما يكون منها في الممالك الأجنبية، وعدّوها من مفاخرهم. فنفخوا بذلك ثروة بلادهم إلى غير بلادهم! وأمانوا أرباب الصنائع من قومهم! وهذا جدع لأنف الأمة يشوه وجهها، ويحط بشانها!

لقد علمتنا التجارب أن المقلدين من كل أمة، المنتحلين أطوار غيرها، يكونون فيها منافذ لتطرق الأعداء إليها. وطلانع لجيوش الغالبين وأرباب الغارات، يمهدون لهم السبيل، ويفتحون الأبواب، ثم يثبتون أقدامهم!

إن المقلدين لتمدن الأخرى ليسوا أرباب تلك العلوم التي ينقلونها، وإنما هم حملة ونقلة! لا يراعون فيها النسبة بينها

وبين مشارب الأمة وطبايعها.. وهم ربما لا يقصدون إلا خيرا، إن كانوا من المخلصين! لكنهم يوسعون بذلك الخروق حتى تعود أبوابنا لتداخل الأجانب فيهم تحت اسم «النصحاء»، وعنوان «المصلحين»، وطلاب الإصلاح، فيذهبون بأمتهم إلى الفناء والاضمحلال، وبنس المصيرا!

إن نتيجة هذا التقليد للتمدن الغربي عند هؤلاء الناشئة المقلدين ليست إلا توطيد المسالك والركون إلى قوة مقلديهم، فيبالغون في تطمين النفوس، وتسكين القلوب، حتى يزيلوا الوحشة التي قد يصون الناس بها حقوقهم، ويحفظون بها استقلالهم، ولهذا، متى طرق الأجانب أرضنا لاية أمة ترى هؤلاء المتعلمين - المقلدين - فيها أول من يقبلون عليهم ويعرضون أنفسهم لخدمتهم.. فكأنما هم منهم! ويعدون الغلبة الأجنبية في بلادهم أعظم بركة عليهم..⁽¹⁾

وبعد هذا النقد اللاذع - إلى حد الاتهام بالعمالة - للمقلدين للنموذج الغربي في التمدن والتحديث.. ذهب جمال الدين الأفغاني بعد «التخلية» إلى «التحلية».. فتحدث عن «البديل الحضاري الإسلامي» المنطلق من مرجعية الدين الإسلامي في النهضة والإصلاح، فقال:

«إن الدين هو قوام الأمم، وبه فلاحها، وفيه سعادتها، وعليه مدارها». ولقد أكسب الدين عقول البشر ثلاث عقائد، وأودع

(1) [الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني] ص 533. 191-197. دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة. طبعة القاهرة 1968م.

نفوسهم ثلاث حصال، كل منها ركن لوجود الأمم وعماد لبناء هينتها الاجتماعية وأساس محكم لمدينتها، وفي كل منها سابق يحث الشعوب والقبائل على التقدم لغايات الكمال والرقي إلى نرى السعادة، ومن كل واحدة وازع قوي يباعد النفس عن الشر، ويمنعها عن مقارفة الفساد، ويصدها عن مقاربة ما يببدها ويبيدها.

العقيدة الأولى: التصديق بأن الإنسان ملك أرضي، وهو أشرف المخلوقات.

والثانية: يقين كل ذي دين بأن أمته أشرف الأمم، وكل مخالف له فعلى ضلال وباطل.

والثالثة: جزمته بأن الإنسان إنما ورد هذه الحياة الدنيا لاستحصال كمال يهينه للعروج إلى عالم أرفع وأوسع من هذا العالم الدنيوي.

فلم تبق ريبة في أن الدين هو السبب المفرد لسعادة الإنسان.. ولو قام الدين على قواعد الأمر الإلهي الحق، ولم يخالطه شيء من أباطيل من يزعمونه ولا يعرفونه، فلا ريب أنه سيكون سبباً في السعادة التامة والتعيم الكامل، ويذهب بمعتقديه جواد الكمال الصوري والمعنوي، ويصعد بهم إلى ذروة الفضل الظاهري والباطني، ويرفع أعلام المدنية لطلابها، بل يفيض على التمدين من ديم الكمال العقلي والنفسي ما يظفرهم بسعادة الدارين.

لا أطيل عليك بحثًا، ولا أذهب بك في مجالات بعيدة من
البيان، ولكني أستلقت نظرك إلى سبب يجمع الأسباب، ووسيلة
تحيط بالوسائل:

أرسل فكرك إلى نشأة الأمة التي خملت بعد نياحة، واطلب
أسباب نهوضها الأول.. إنه دين قويم الأصول، محكم القواعد،
شامل لأنواع الحكم، باعث على الألفة، داع إلى المحبة، مَرَكٌ
للنفوس، مُطهر للقلوب من أدران الحَسانس، منور للعقول
باشراق الحق من مطالع قضاياها، كافل لكل ما يحتاج إليه
الإنسان من مباني الاجتماعات البشرية، وحافظ وجودها،
ويتأدى بمعتقديه إلى جميع فروع المدنية.

فإن كانت هذه شرعة تلك الأمة، ولها وردت، وعنهما صدرت،
فما نراه من عارض خللها، وهبوطها عن مكانتها، إنما يكون من
طرح تلك الأصول ونبذها ظهريًا. فعلاجها الناجع إنما يكون
برجوعها إلى قواعد دينها، والأخذ بأحكامه على ما كان في
بدايته.. ولا سبيل لليأس والقنوط، فإن جرائم - [أصول] - الدين
متأصلة في النفوس والقلوب مطمئنة إليه.. وفي زواياها نور
خفي من محبته، فلا يحتاج القائم بإحياء الأمة إلا إلى نفخة
واحدة يسري نفسها في جميع الأرواح لأقرب وقت.. فإذا قاموا،
وجعلوا أصول دينهم الحقّة نصب أعينهم، فلا يعجزهم أن يبلغوا
في سيرهم منتهى الكمال الإنساني.

ومن طلب إصلاح أمة شأنها ما ذكرنا بوسيلة سوى هذه، فقد
ركب بها شططًا، وجعل النهاية بداية، وانعكست التربية،

الإصلاح بالإسلام عند الشيخ محمد عبده

■ وعلى ذات الدرب سار الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده..
الذي انتقد مادية المدنية الغربية، فقال:

«إن هذه المدنية هي مدنية الملك والسلطان، مدنية الذهب
والفضة، مدنية الفخفخة والبهرج، مدنية الختل والنفاق،
وحاكمها الأعلى هو «الجنيه» عند قوم، و«الليرا» عند قوم
آخرين، ولا دخل للإنجيل في شيء من ذلك».

ولقد تعجب الأستاذ الإمام من فلاسفة هذه المدنية المادية،
«الذين اكتشفوا كثيرًا مما يفيد في راحة الإنسان وتوفير راحته،
وتعزيز نعمته، ثم أعجزهم أن يكتشفوا طبيعة الإنسان،
ويعرضوها على الإنسان حتى يعرفها فيعود إليها! لقد صقلوا
المعادن حتى كان الحديد اللامع المضيء، أفلا يتيسر لهم أن
يجلوا ذلك الصدا الذي غشي الفطرة الإنسانية، ويصقلوا تلك
النفوس حتى يعود لها لمعانها الروحي!»

لقد حار الفيلسوف «هنري سبنسر» [1820 - 1903م] في
حال أوروبا، وأظهر عجزه مع قوة العلم، فأين الدواء؟! إنه
الرجوع إلى الدين.. الدين هو الذي كشف الطبيعة الإنسانية،
وعرفها إلى أربابها في كل زمان، لكنهم يعودون فيجهلون⁽¹⁾ها!

(1) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] ج3، ص205، 495. دراسة وتحقيق د محمد
عمارة. طبعة بيروت 1972م.

وبعد هذا النقد لمادية المدنية الغربية، تلك المادية التي أعجزت أهل هذه الحضارة عن اكتشاف التدين الفطري للإنسان.. تحدث الإمام محمد عبده عن وسطية الإسلام، التي جعلته دين الفطرة الإنسانية السوية.. الأمر الذي يجعله السبيل الأول للنهوض الحضاري والإصلاح الاجتماعي.. فقال:

«لقد ظهر الإسلام، لا روحياً مجرداً، ولا جسدياً جامداً، بل إنسانياً وسطاً بين ذلك، آخذاً من كلا القبيلين بنصيب، فتوافر له من ملاءمة الفطرة البشرية ما لم يتوافر لغيره، ولذلك سمي نفسه: دين الفطرة، وعرف له ذلك خصومه اليوم، وعدوه المدرسة الأولى التي يرقى فيها البرابرة على سلم المدنية..»

لقد جاء الإسلام كاملاً للشخص، وألفه في البيت، ونظاماً للملك، امتازت به الأمم التي دخلت فيه عن سواها ممن لم يدخل فيه»⁽¹⁾

ثم تحدث الإمام محمد عبده عن الإسلام كسبيل مفرد للتقدم والنهوض والإصلاح.. فقال:

«إن أهل مصر قوم أنكباء.. يغلب عليهم لين الطباع، واشتداد القابلية للتأثر، لكنهم حفظوا القاعدة الطبيعية، وهي: أن البذرة لا تنبت في أرض إلا إذا كان مزاج البذرة مما يتغذى من عناصر الأرض، ويتنفس بهواتها، وإلا ماتت البذرة، بدون عيب على طبقة الأرض وجودتها، ولا على البذرة وصحتها، وإنما العيب على البادر.

(1) المصدر السابق، ج3 ص287، 225، 266.

أنفس المصريين أشربت الانقياد إلى الدين حتى صار طليغا فيها. فكل من طلب إصلاحها من غير طريق الدين فقد بذر بذرا غير صالح للتربة التي أودعه فيها. فلا ينبت، ويضيع تعبها. ويخفق سعيها، وأكبر شاهد على ذلك ما شوهد من أثر التربية التي يسمونها أدبية - من عهد محمد علي إلى اليوم - فإن المأخوذين بها لم يزدادوا إلا فسادا - وإن قيل إن لهم شيئا من المعلومات فما لم تكن معارفهم وأدابهم مبنية على أصول دينهم فلا أثر لها في نفوسهم.

إن سبيل الدين لمريد الإصلاح في المسلمين سبيل لا مندوحة عنها. فإن إتيانهم من طرق الأدب والحكمة العارية عن صبغة الدين، يحوجه إلى إنشاء بناء جديد، ليس عنده من مواده شيء، ولا يسهل عليه أن يجد من عماله أحدا.

وإذا كان الدين كافلاً بتهديب الأخلاق، وصلاح الأعمال، وحمل النفوس على طلب السعادة من أبوابها، ولأهلها من الثقة فيه ما ليس لهم في غيره، وهو حاضر لديهم، والعناء في إرجاعهم إليه أخف من إحداث ما لا إمام لهم به، فلم العدول عنه إلى غيره؟⁽¹⁾

هكذا انتقد الإمام محمد عبده المدنية الغربية، رافضاً أن يكون انتمائنا إليها. وتحدث عن تميز النموذج الحضاري الإسلامي بالوسطية الجامعة بين الدين والدولة والدنيا والآخرة. وأكد على أن الإسلام ونموذجه الحضاري هو سبيل الإصلاح والتقدم والنهوض.

(1) المصدر السابق، ج3 ص109، 231.

السنهوري باشا وبعث المدنية الإسلامية

■ فلما قبض الاستعمار على السلطة في البلاد الإسلامية التي خضعت للاحتلال.. وفرضت سلطات الاحتلال القانون الوضعي - قانون نابليون - مغيرة بذلك قسمة من قسّمات الهوية الحضارية للأمة.. برزت المشاريع الإسلامية المدافعة عن الانتماء الحضاري الإسلامي في المدنية والقانون والعمران..

لقد فرض الاستعمار الإنجليزي على القضاء الأهلي المصري قانون نابليون منذ 1883م.. وفي مواجهة هذا الاختراق تخلقت المشاريع الفكرية المقاومة لهذا الانحراف، والمركية للبدل الإسلامي.. ومن هذه المشاريع الفكرية مشروع الفقيه الإسلامي والقانوني البارز، والقاضي العادل الدكتور عبد الرزاق السنهوري باشا [1313 - 1391 هـ - 1895 - 1971م] الذي جعل رسالته في الحياة: بعث الشريعة الإسلامية لتتخطى أعناق القرون، ولتعود المصدر الوحيد للتشريع والتقنين.. وتجديد الفقه الإسلامي.. وجعل المدنية الإسلامية هوية الشرق وانتماء الحضاري، وطريقه إلى التقدم والنهوض.. ومن صياغاته الفكرية - في هذا الباب - ما سطره قلمه عندما قال:

«يقول الشرق لأبنائه إن نهضتي هي نهضة دين - ودول الشرق لا يمكن أن تجتمع على شيء واحد غير دين الإسلام.. ولقد

كنت أحلم صغيراً بالجامعة الإسلامية.. وكلما تقدمت في السن ازداد إيماني وتعلقني بقيام الشرق الإسلامي.. وبجمعية أمم شرقية إلى جانب جمعية الأمم الغربية.. فالشرق بالإسلام والإسلام بالشرق.. إنهما شيء واحد، وإذا تحدثت عن أحدهما فكأنني أتحدث عن الآخر..

والشريعة الإسلامية هي شريعة الشرق، منتزعة من روح الشرق وضميره، أوحى بها الله إلى عبد شرقي، في أرض شرقية. والإسلام دين ودولة.. هو دولة إلى جانب الدين، ومُلك إلى جانب العقيدة، وقانون إلى جانب الشعائر.. إنه دين الأرض كما هو دين السماء.. ولقد وضع نبي الإسلام - ﷺ - قواعد لحياة اجتماعية وحياة سياسية، وأسس دولة إلى جانب دين.. وأقام الوحدة الدينية للأمة العربية والوحدة السياسية للجزيرة العربية، فهو مؤسس الحكومة الإسلامية، كما أنه نبي المسلمين.

وأريد أن يعرف العالم: أن الإسلام دين ومدنية.. وأن المدنية الإسلامية أكثر تهذيباً من المدنية الأوروبية.. والرابطة الإسلامية يجب أن تفهم بمعنى المدنية الإسلامية، وأساس هذه الرابطة: الشريعة الإسلامية.. وعلى الذين يقولون: إن على بلادنا أن ننظر إلى المدنيات الغربية فتختار من كل أحسنه، أن يدركوا ضعف هذا الرأي، الذي ينسى أصحابه أن لبلادنا مدنية إسلامية أصيلة.. وليست هي البلاد الطفيلية التي ترقع لها ثوبنا من فضلات الأقمشة التي يلقيها الخباطون!..

لقد أعطى الإسلام للعالم شريعة هي أرسخ الشرائع ثباتاً..
شريعة تفوق في كثير من تفاصيلها الشرائع الأوربية.. وهي -
في نظر المنصفين - من أرقى النظم القانونية في العالم..
وصالحة لأن تكون دعامة من دعائم القانون المقارن.. وإن
استقاء تشريعنا المعاصر من مصدر الشريعة الإسلامية هو الذي
يتفق مع تقاليدنا القانونية ويستقيم مع النظر الصحيح..

وإذا كان لنا هذا التراث العظيم، فكيف يجوز لنا أن نفرط
فيه؟! إنها شريعة مرنة، صالحة لأن تلبس لباس الزمن الذي
تعيش فيه.. إنها شريعة الشرق، ووحى أحكامه.. وفيها من
العناصر التي لو تولتها الصياغة فأحسنست صياغتها، لصنعت
منها نظريات ومبادئ لا تقل في الرقي والشمول وفي مسابرة
التطور عن أخطر النظريات الفقهية التي نتلقاها اليوم عن الفقه
الغربي الحديث.. إنها تراثنا التشريعي، الذي إذا وطأنا أكتافه،
وعبدنا سبله، كان لنا من هذا التراث الجليل ما ينفخ روح
الاستقلال في فقهاءنا وفي قضائنا وفي تشريعنا، ثم لأشرفنا
نطالع العالم بهذا النور الجديد، فنضيء به جانباً من جوانب
الثقافة العالمية في القانون..

إن الكتاب والسنة هي المصادر العليا للفقه الإسلامي، فيها
المبادئ العامة التي ترسم للفقه اتجاهاته، دون أن تكون هي
الفقه ذاته.. فالفقه الإسلامي هو فقه صميم، من عمل الفقهاء،
والصياغة الفقهية فيه، وكذلك أساليب التفكير القانوني واضحة
ظاهرة.. وهو صفحة خالدة في سجل الفقه العالمي.. إن مشروع

دراسة هذا الفقه الإسلامي المجيد والعنيد، في ضوء القانون المقارن، قد انغرس في نفسي، وأصبح جزءاً من حياتي، يكبر معها ولكنه لا يشيب ولا يهرم. إنه الأمل المقدس الذي تنطوي عليه جوانحي، ويهفو له قلبي، ولا يبرح ذاكرتي منذ سن الشباب.. وإذا ما اكتمل لهذا الفقه تطوره، أمكن وقتئذ أن تصبح الثقافة المدنية ثقافة إسلامية.. ويمكن عندئذ تحقيق الهدف الذي قصدت إليه، وهو: أن يكون للبلاد العربية قانون واحد يشق رأساً من الشريعة الإسلامية⁽¹⁾.

هكذا تحدث السنهوري باشا - حديث العالم الخبير في الفقه الإسلامي وفي القانون الدولي - عن انتماء الشرق إلى الإسلام: الدين.. والدولة.. والمدنية.. والشريعة.. والفقه.. فالشرق بالإسلام والإسلام بالشرق.. وهما شيء واحد..

وهكذا رفض استعارة النموذج الحضاري الغربي.. واستنكر التسول على مائدة المدنية الأوروبية.. داعياً إلى الانتماء إلى «النور الإسلامي» وإلى أن تضيء به جانباً من جوانب الثقافة العالمية في المدنية والقانون.

* * *

(1) انظر في ذلك [إسلاميات السنهوري باشا] ج 1، 2 دراسة وتحقيق وجمع وتصنيف: د. محمد عمارة - طبعة دار الوفاء 2006م.

الانتماء للإسلام - لا للغرب .. أو الفرعونية - عند هيكل باشا

وكانت هناك قيادات فكرية ظنت - بسبب «الاجتهاد الخاطي» - أن تاريخنا الحضاري والديني مماثل لتاريخ الغرب.. وأنه قد عرف ذات المشكلات - ومن ثم فإن نهضته تتطلب ذات الحلول.. ولذلك، فإن النموذج الحضاري الغربي صالح لأن يكون سبيلنا إلى النهوض الحديث..

ولقد بشرت هذه القيادات الفكرية - ربحاً من الزمن - بأخذ هذا النموذج الغربي - العقلي منه.. والروحي -.. ثم اكتشفت - في مرحلة من مراحل اجتهاداتها.. ونضجها الفكري - أن هناك مغايرة بين تاريخنا الحضاري والديني وبين تاريخ الغرب.. فصرفت النظر عن هذا الذي بشرت به ربحاً من الزمن.. وانصرفت إلى وجهة أخرى - في بحثها عن الانتماء الحضاري - وهي الانطلاق من النموذج الفرعوني القديم، فأخذت تدعو إلى إحياء التراث الفرعوني ليكون المنطلق للنهوض المصري الجديد والحديث.. ثم عادت فاكتشفت - خلال هذه الاجتهادات - أن هذه الحقبة من التاريخ الفرعوني قد تمت القطيعة معها - بعد استيعاب الصالح منها فيما أعقبها من مراحل حضارية - ومن ثم فلم تعد صالحة للاستلham ولا للإحياء.. وهنا أدركت - هذه

القيادات الفكرية - أن النموذج الإسلامي - بسبب من تميزه عن النموذج الغربي.. وبسبب استيعابه للمصالح من الموارث الحضارية الشرقية القديمة - هو وحده الصالح للاستلهام.. وهو القابل للتجديد.. وهو المناسب ليكون مصدر الانتماء.. ثم إنه لا يزال حياً قي وجداننا وفي ثقافتنا، تعيشه جماهير أمتنا.. لم يصبه الانقطاع الذي أصاب النموذج الحضاري الفرعوني القديم.. وعند ذلك أعلنت هذه القيادات - في شجاعة أدبية محمودة - أن انتماءنا الحضاري إنما هو إلى الإسلام وحضارته وتاريخه.. وليس إلى الفراعنة ولا إلى الغربيين..

ولقد كان الدكتور محمد حسين هيكل باشا [1305 - 1375هـ - 1888 - 1956م] نموذجاً متميزاً بين أصحاب هذه المسيرة الفكرية، وأصحاب هذه الاجتهادات.. ولقد كتب عن هذه المسيرة في الاجتهادات الفكرية حول الانتماء الحضاري صفحات وضاءة.. انتقد فيها:

1 - الفكرة القومية الغربية - التي بشر بها زمننا - ثم اكتشف مجافاتها لفكرة الأمة الإسلامية الواحدة، المؤسسة على التوحيد الإسلامي.. فقال:

«إن الفكرة الإسلامية، المبنية على التوحيد، تخالف ما يدعو إليه عالمنا الحاضر من تقديس القوميات، وتصوير الأمم وحدات متنافسة، يحكم السيف وتحكم أسباب الدمار بينها فيما تتنافس عليه.

ولقد تأثرنا، معشر أُمَمِ الشَّرْقِ، بِهَذِهِ الْفِكْرَةِ الْقَوْمِيَّةِ، وَانْدَفَعْنَا
نَنْفَخُ فِيهَا رُوحَ الْقُوَّةِ، نَحْسِبُ أَنَّنَا نَسْتَطِيعُ أَنْ نَقْفَ بِهَا فِي وَجْهِ
الْغَرْبِ الَّذِي طَغَى عَلَيْنَا وَأَذَلَّنَا، وَخَيْلَ إِلَيْنَا، فِي سِذَاجَتِنَا، أَنَّنَا
قَادِرُونَ بِهَا وَحْدَهَا عَلَى أَنْ نَعِيدَ مَجْدَ آبَائِنَا، وَأَنْ نَسْتَرِدَّ مَا
غَضِبَ الْغَرْبُ مِنْ حُرِّيَّتِنَا وَأَهْدَرَ مِنْ كِرَامَتِنَا الْإِنْسَانِيَّةِ.

ولقد أنسانا بريق حضارة الغرب ما تنطوي هذه الفكرة
القومية عليه من جرائم فتاكة بالحضارة التي تقوم على
أساسها وحدها، وزادنا ما خيم علينا من سُجْفِ الْجَهْلِ إِمْعَانًا
فِي هَذَا النِّسْيَانِ.

على أن التوحيد الذي أضاء بنوره أرواح آبائنا، قد أورثنا من
فضل الله سلامة في الفطرة هُدىً إلى تصور الخطر فيما يدعو
الغرب إليه. ولذلك، لم يكن لنا مفر من العودة إلى تاريخنا
نلتمس فيه مقومات الحياة المعنوية، لنخرج من جمودنا المذل،
ولنتقي الخطر الذي دفعت الفكرة القومية الغرب إليه فأدامت فيه
الخصومة، بسبب الحياة المادية التي جعلها الغرب إلهه..⁽¹⁾

2- وانتقد النزعة العلمانية - التي طالما بشر بها، ودافع عنها
إبان رئاسته لتحرير صحيفة [السياسة] التي كانت منبر الدفاع
عن كتاب الشيخ علي عبد الرازق [1305 - 1386 هـ - 1887 - 1966 م]
[الإسلام وأصول الحكم] سنة 1925 م.. وهو الكتاب الذي أعلن أنه:
«يا بعد ما بين السياسة والدين!».. وزعم «أن محمداً - ﷺ -
ما كان إلا رسولاً لدعوة دينية خالصة للدين، لا تشوبها نزعة

(1) - محمد حسين هيكل [في منزل الوحي] ص 22-26. طبعة القاهرة 1967 م.

ملك ولا حكومة.. ولم يَقم بتأسيس مملكة، بالمعنى الذي يفهم سياسة من هذه الكلمة ومرادفاتها، ما كان إلا رسولاً كإخوانه الخالين من الرسل، وما كان ملكاً ولا مؤسس دولة، ولا داعياً إلى ملك.. وظواهر القرآن المجيد تؤيد القول بأن النبي لم يكن له شأن في الملك السياسي، وآياته متضافرة على أن عمله السماوي لم يتجاوز حدود البلاغ المجرد من كل معاني السلطان.. لم يكن إلا رسولاً قد خلت من قبله الرسل.. ولم يكن من عمله شيء غير إبلاغ رسالة الله تعالى إلى الناس.. وليس عليه أن يأخذ الناس بما جاءهم به، ولا أن يحملهم عليه.. كانت ولاية محمد على المؤمنين ولاية الرسالة غير مشوية بشيء من الحكم.. هيئات هيئات لم يكن ثمة حكومة ولا دولة، ولا شيء من نزعات السياسة ولا أغراض الملوك والأمراء»⁽¹⁾.

نعم.. بعد أن كان هيكل باشا فارس الدفاع عن هذه العلمانية - وعن علمنة الإسلام - إذا به ينوب إلى الموقف الفكري المناقض لهذا الموقف.. فيكتب مدافعاً عن تميز الإسلام بأنه دين ودولة وحضارة.. وتميز رسوله - ﷺ - بأنه - دون الخالين من الرسل - نبي وسياسي ورجل دولة.. وتميز تاريخنا الإسلامي عن التاريخ الحضاري الغربي بالبراءة من الكهانة والدولة الدينية الكنسية.. ولقد كتب هيكل باشا - معلناً هذا التحول الفكري - فقال:

«لقد أقام محمد دين الحق، ووضع أساس حضارة هي وحدها الكفيلة بسعادة العالم، فبعد الهجرة إلى المدينة، بدأ طور جديد

(1) علي عبد الرازق [الإسلام وأصول الحكم] ص 64-80. طبعة القاهرة 1925م.

من أطوار حياة محمد، بدأ الطور السياسي، الذي لم يسبقه إليه أحد من الأنبياء والرسل.. فلقد كان عيسى وكان موسى وكان من سبقهما من الأنبياء يقفون عند الدعوة الدينية يبلغونها للناس عن طريق الجدل ومن طريق المعجزة ثم يتركون لمن بعدهم من الساسة وذوي السلطان أن يتشروا هذه الدعوة، فأما محمد، فقد أراد الله أن يتم نشر الإسلام وانتصار كلمة الحق على يديه، وأن يكون الرسول والسياسي والمجاهد والفتاح..

والدين والحضارة اللذان بلغهما محمد للناس بوحي من ربه يتزاوجان، حتى لا انفصال بينهما..

وقد خلا تاريخ الإسلام من النزاع بين السلطة الدينية والسلطة الزمنية.. فأنجاه ذلك مما ترك هذا النزاع في تفكير الغرب وتاريخه..»⁽¹⁾

3 - وانتقد الانتماء للحضارة الفرعونية - الذي بشر به بعد تحوله عن دعوة الانتماء للحضارة الغربية.. فقال:

«.. ولقد انقلبت - [أي بعد مرحلة الانبهار بالغرب] - الشمس في تاريخنا البعيد، في عهد الفراعين، مونتلاً لوحي هذا العصر، ينشأ فيه نشأة جديدة، فإذا الزمن وإذا الركود العقلي قد قطعاً ما بيننا وبين ذلك العهد من سبب قد يصلح بذراً لنهضة جديدة»

ورأت.. [أي نظرت] - قرأيت أن تاريخنا الإسلامي هو وحده البذر الذي ينبت ويثمر، ففيه حياة تحرك النفوس وتجعلها تهتز

(1) د. هيكل باشا [حياة محمد] ص 236، 238، 239، 516، 519. طبعة القاهرة 1981م

وتربو. ولأبناء هذا الجيل في الشرق نفوس قوية خصبة تنمو
(1) فيها الفكرة الصالحة لتؤتي ثمرها بعد حين..»

وبعد هذه المعاناة.. والمراجعات الفكرية - العميقة..
والشجاعة - والتحول عن النموذج الحضاري الغربي - بأعمده:
القومية.. والعلمانية - وعن الانتماء الفرعوني.. حدث أن أصدقاء
هيكل باشا - وزملاءه في التغريب - انتقدوه. وقالوا - على لسان
صديقه الحميم الدكتور طه حسين - إنه قد انقلب عن التجديد
والتقدم إلى السلفية والتقليد.. وأنه بعد أن كان يقود الجماهير
أصبحت تقوده الجماهير! فما زاده هذا النقد إلا إيماناً بما انتهى
إليه نظره واجتهاده..

ولقد أعلن «نقده لهذا النقد».. فقال:

«..وأقف هنا لأدفع زعمًا حسب الذين زعموه أنه مغرر
غمزوني به بعد تأليف كتابي [حياة محمد] لقد حسب هؤلاء
أنني انقلبت بكتابة السيرة رجعيًا، وكنت عندهم قبلها في
طليعة المجددين.. لكنني أسائل أصدقائي، أحرار الرأي، عن
غايتنا جميعًا حين ننتج؟ ألسنا نبتغي التقدم خطوة جديدة
في سبيل الكمال؟»

ولقد طالما التمسنا في شرقنا أسباب النهوض بعلمنا، لنقف
إلى جانب الإنسانية المهذبة، لا ينكس الخجل رءوسنا، ولا يحز
في نفوسنا ذلك الشعور الممض بأننا دون الغرب مكانًا.

(1) [في منزل الوحي] ص 22-26.

ولقد خيّل إلى زماننا، كما لا يزال يخيل إلى أصحابي، أن نقل حياة الغرب العقلية والروحية سبيلنا إلى هذا النهوض.. وما أزال أشارك أصحابي في أننا ما نزال في حاجة إلى أن ننقل من حياة الغرب العقلية كل ما نستطيع نقله.

ولكني أصبحت أخالفهم في أمر الحياة الروحية، وأرى أن ما في الغرب منها غير صالح لأن ننقله، فتاريخنا الروحي غير تاريخ الغرب، وثقافتنا الروحية غير ثقافته. خضع الغرب للتفكير الكنسي على ما أقرته «البابوية» المسيحية منذ عهدها الأول، وبقي الشرق بريئاً من الخضوع لهذا التفكير، بل حورت المذاهب الإسلامية التي أرادت أن تقيم في العالم الإسلامي نظاماً كنسياً - أهول الحرب، فلم تقم لها فيه قائمة أبداً⁽¹⁾.

بذلك بقي الشرق مطهراً من الأسباب التي أدت إلى اضطراب الغرب الروحي وإلى ثوراته السياسية التي نشأت عن هذا الاضطراب، وبقي المسيحيون المقيمون في الشرق في جوار المسلمين في طمأنينة لا يصلون من نيران الثورات والحروب الأهلية ما كان يصلاه إخوانهم في الغرب.

كان الخروج على الكنيسة المسيحية في الغرب إعلاناً للثورة على السلطان، وكانت الثقافة الروحية لذلك في قبضة رجال الدين، يبرمون من أمرها ما يشاءون إبرامه، وينقضون ما يشاءون نقضه.. أما والإسلام لا يعرف الكنيسة، وأقرب الناس

(1) الإشارة إلى مذاهب الشيعة، التي ألهمت الأنمة.. وجعلت الإمامة شأنًا إلهيًا

فيه إلى الله أتقاهم، ولا فصل فيه لعربي على عجمي إلا بالتقوى، فقد بقيت الثقافة الروحية في الشرق حرة طليقة لم تقيد إلا حين قعد الجهل بالناس ففترت الأذهان وخدمت القرائح وجمدت القلوب.

لم تعرف عصور الازدهار الإسلامي قيذا لحرية الفكر ما كان صاحبه بريء القصد يبتغي برأيه سبيل الحق، ولم يعرف المسلمون أن الذنوب يغفرها غير الله.

كيف نستطيع أن ننقل ثقافة الغرب الروحية لننهض بهذا الشرق؟ وبيننا وبين الغرب في التاريخ وفي الثقافة الروحية هذا التفاوت العظيم؟!.

لا مفر، إذا، من أن نلتمس في تاريخنا وفي ثقافتنا وفي أعماق قلوبنا وفي أطواء ماضيها هذه الحياة الروحية نحوي بها ما فتر من أذهاننا وخدمت من قرائحنا وجمدت من قلوبنا.

إن التوحيد، الذي أضاع بنوره أرواح أبائنا، قد أورثنا من فضل الله سلامة في الفطرة هدتنا إلى تصور الخطر فيما يدعو الغرب إليه، وإلى أن أمة لا يتصل حاضرها بماضيها خليفة أن تضل السبيل، وإلى أن الأمة التي لا ماض لها لا مستقبل لها، ومن ثم كانت الهوة التي ازدادت عمقا بين سواد الأمم في الشرق والدعوة إلى إغفال ماضيها والتوجه وجهة الغرب بكل وجودنا، وكان النفور من جانب السواد عن الأخذ بحياة الغرب المعنوية، مع حرصه على نقل علومه وصناعاته. والحياة

المعنوية هي قوام الوجود الإنساني للأفراد والسعوب. ولذلك لم يكن لنا مفر من العودة إلى تاريخنا نلتمس فيه مقومات الحياة المعنوية. لم ألبث حين تبينت هذا الأمر أن دعوت إلى إحياء حضارتنا الشرقية..

فأين هذا من تملق الجمهور أو متابعتة التماساً لرضاه.. كما يزعم الذين يغمزون؟!

لقد حاولت أن أنقل لأبناء لغتي ثقافة الغرب المعنوية والروحية، لنتخذها جميعاً هدى ونبراساً. ولكني أدركت، بعد لأي، أنني أضع البذر في غير منبته، فإذا الأرض تهضمه ولا تتمخض عنه، ولا تبعث الحياة..

هذا كلام واضح بين..

ومن عجب أن يخفى على أصحابي، فلا يرونه. وأن يكون خفاؤه سبب تريبهم علي!

ولكن، لا عجب، فقد خفي هذا الكلام عني سنوات، كما لا يزال خفياً عن كثيرين منهم!!⁽¹⁾

* * *

ويعد هذا النقد الشجاع، الذي قدمه هيكل باشا، لا لمسيرته الفكرية وحده إزاء قضية الانتماء الحضاري، ونموذج النهضة.. وهل هو الغرب؟ أم الإسلام؟. وإنما للمسيرة الفكرية لشريحة مؤثرة من النخبة والصفوة، التي انبهرت بالنموذج الغربي..

(1) [في منزل الوحي] ص 22-26.

وظننت أنه مرجعية الانتماء وسبيل النهوض، ثم عادت - بعد
النضج - إلى الإيمان بأن انتماءنا الحضاري إنما هو إلى
الإسلام.. المتميز عن النموذج الغربي تمام التميز.. وأن هذا
الإسلام - عند تجديده - هو سبيل هذه الأمة إلى النهوض والإقلاع
الحضاري من المأزق الذي وقعت فيه..

بعد هذا الدرس البليغ في المراجعات الفكرية وأصل الدكتور
هيكل باشا إبداعاته الفكرية على هذا الطريق..

* * *

الكفر بالشرق.. والذوبان في الغرب عند سلامة موسى

فلما عمّت بلوى الاستعمار.. وعلا صوت التغريب.. ووجدت دعوات تغيير الهوية والانتماء الحضاري لها بعض الركائز في الثقافة والإعلام - من مثل سلامة موسى [1305 - 1377هـ - 1888م - 1958م].. الذي بلغ الذروة في «الصراحة» التي نافست «الوقاحة»! فدعا إلى الكفر بالشرق - ديناً ولغة وحضارة وتاريخاً - وإلى الإيمان بالغرب.. وجهر بضرورة الانسلاخ عن كل مقومات الشرق، والاندماج في أوروبا شكلاً ومضموناً.. فقال:

«كلما ازددت خبرة وتجربة وثقافة، توضحت أمامي أغراضى.. فهي تتلخص في أنه: يجب علينا أن نخرج من آسيا وأن نلتحق بأوروبا، فإني كلما زادت معرفتي بالشرق، زادت كراهيتي له، وشعوري بأنه غريب عني، وكلما زادت معرفتي بأوروبا، زاد حبي لها، وتعلقى بها، وزاد شعوري بأنها مني وأنا منها.

فأنا أزاول حرفة الأدب، لكي أدأب في وعظ أمتي بوجوب كفها عن ممارسة العادات التي اكتسبتها من آسيا، ووجوب اصطناعها عادات أوروبا.

أريد من التعليم أن يكون تعليماً أوروبياً، لا سلطان للدين عليه ولا دخول له فيه.. وأريد من الحكومة أن تكون كما هي في

أوربا، وأن يعاقب كل من يحاول أن يجعلها مثل حكومة هارون الرشيد [149 - 193هـ - 766 - 809م] أو المأمون [170 - 218هـ - 786 - 833م]..

وأريد من الأدب أن يكون أدبا أوروبيا.. أبطاله فتيان مصر وفتياتها، لا رجال الدولة العباسية ولا رجال الفتوحات العربية.. ثم أريد أن تكون ثقافتنا أوروبية.. أما الثقافة الشرقية، فيجب أن نعرفها لكي نتجنبها، لما نرى من أثارها في الشرق، آثار العبودية والذل والتوكل على الآلهة!!

ولست أجهل أن أسيا قد حكمت مصر نحو ألف عام، وبسطت عليها حضارتها وثقافتها، بل ودست دمها في دماء أبنائها. ولكننا نحمد الأقدار - [!!] - أننا ما زلنا في السحنة والنزعة أوروبيين، إذ نحن أقرب في هيئة الوجه ونزعة الفكر إلى الإنجليزي أو الإيطالي.. وكذلك الحال في سوريا وشمال إفريقيا العربي، فإن سكان هذه الأقطار أوروبيون سحنة ونزعة. فلماذا إذن لا نصطنع جميعا الثقافة والحضارة الأوربيتين، ونخلع عنا ما تقمصناه من ثياب أسيا!

إننا لسنا شرقيين، وإنما جاءنا هذا الاسم من أننا كنا تابعين للدولة الرومانية الشرقية عندما انفصلت من الدولة الرومانية الغربية..

وإن الاعتقاد بأننا شرقيون قد بات عندنا كالمرض.. ولهذا المرض مضاعفات، فنحن لا نكره الغربيين فقط، ولا نتأفف من

طغيان حضارتهم فقط، بل يقوم بذهنتنا أنه يجب أن نكون على ولاء للثقافة العربية، فندرس كتب العرب، ونحفظ عباراتهم عن ظهر قلب، كما يفعل أدياؤنا المساكين أمثال المازني والرافعي، وندرس ابن الرومي، ونبحث عن أصل المتنبي، ونبحث عن علي ومعاقبة ونفاضل بينهما، ونتعصب للجاحظ، ونحاول أن تثبت أن العرب عرفوا الفنون.. وكل ذلك إنما يدفعه في أنفسنا كراهتنا للعرب، وأنفتنا من جهته، واعتقادنا أننا شرقيون من جهة أخرى..

إنه ليس علينا للعرب أي ولاء، وإدمان الدرس لثقافتهم مضيعة للشباب، وبعثرة لقوا.. إن العرب أمة قديمة.. ونحن أرقى منها.. ويجب أن يكون لها أثريون يدرسونها كما يدرسون أسور وبابل..

يجب أن ترتبط بالعرب، ونصطنع ما عند الغربيين من رقص وألحان وموسيقى.. أما الشعر العربي، فقد سئمنا قوافيه الرتيبة التي تشبه دق الطبل عند السودانيين.

وإن اللغة العربية الفصحى هي لغة ميتة - حتى في زمن ظهور القرآن -.. وإن تعليمها في مصر لا يزال في أيدي الشيوخ الذين ينقون أدمغتهم نقعا في الثقافة العربية، أي في ثقافة القرون المظلمة، فلا رجاء لنا بإصلاح التعليم حتى نمنع هؤلاء الشيوخ منه، ونسلمه للأفندية الذين ساروا شوطا بعيدا في الثقافة الحديثة. ونحن إنما ننزع للغة العرب القديمة، لما تأصل في أذهاننا من ذلك الغرض السخيف، وهو أننا شرقيون، يجب

علينا أن نحافظ على كرامة العرب ولدافع عن تاريخهم. وهذا الاعتقاد في شرفيتنا يجر علينا عدداً من الكوارث قد لا يكون الولاء للغة أهونها.

إن اللغة العربية الفصحى تبعثر وطنيتنا المصرية، وتجعلها شائعة في القومية العربية. فالمتمعمق في اللغة الفصحى يشرب روح العرب، ويعجب بأبطال بغداد القدماء.. فنظره متجه أبداً نحو الشرق، وثقافته كلها عربية شرقية.. مع أننا، في كثير من الأحيان، نحتاج إلى الاتجاه نحو الغرب.. وليس من مصلحة الأمة المصرية أن ينزع شبابها نحو الشرق..

إننا يجب أن ننظر إلى لغة النابغة أو المتنبى كما ننظر إلى اللغة الروسية أو الإيطالية، لأنها ليست لغتنا، ولسنا نستفيد بدرسها.. ونحن نريد العامية لغة الهكسوس، لا الفصحى لغة القرآن والتقاليد العربية.

لقد شرع نابليون يغرس فينا الحضارة الأوربية، ويزيل عنا كابوس الشرق.. وعندنا أفندية قد تفرنجوا.. لكن هناك شيوخاً مافونين يعدون التفرنج رذيلة، مع أنه عين الفضيلة.. وإنه ما من أمة تنهض إلا وتنسلخ من قديمها.. وكل ما هو باق من القديم سيي لا يزال يؤذينا.. مثل وزارة الأوقاف، والمحاكم الشرعية، والمجالس المليية، والبطركيات العديدة.. والأزهر، الذي يشتغل بثقافة قديمة بائدة في عصر حديث.. فهو أداة الثقافة المظلمة، ثقافة القرون الوسطى.. ولذلك لا أتردد في القول بإلغاء الأزهر والاكتفاء بالجامعة المصرية..

وإذا كانت الرابطة الشرقية سخافة؛ لأنها تقوم على أصل كاذب فإن الرابطة الدينية وقاحة شنيعة فنحن أبناء القرن العشرين أكبر من أن نعتد على الدين جامعة تربطنا. إننا في حاجة إلى ثقافة حرة أبعد ما تكون عن الأديان. ويجب أن نفصل الدين عن الدولة، ونلغي تعليمه في المدارس.

وإن الرابطة الحقيقية التي تربطنا هي رابطتنا بأوربا. يجب أن نرتبط بأوربا، وأن يكون رابطتنا بها قويًا، فنزوج من أبنائها وبناتها، وتأخذ عنها كل ما يجد فيها، وننظر للحياة نظرها، ونجعل أدبنا يجري وفق أدبها، بعيدًا عن منهج العرب، ونجعل فلسفتنا وفق فلسفتها، ونؤلف عائلاتنا على غرار عائلاتنا. ونرسل أولادنا إليها ليتعلموا علومها ويتخلقوا بأخلاقها، فالرابطة الغربية هي الرابطة الطبيعية لنا.

إن الإنسان الأوربي أرقى إنسان ظهر في العالم لأن.. والأمة الإنجليزية هي أرقى أمة في العالم.. جسمًا.. وعقلًا.. وخلقًا.. والحضارة الأوربية - على ما فيها من عيوب - هي آخر درجات التطور الاجتماعي، ومن البلاهة البالغة أن يظن أحد الشيوخ أن حضارة بغداد أو القاهرة أو الأندلس كانت تبلغ في السمو عشرًا أو جزءًا من مائة مما تبلغه الحضارة الأوربية الآن.. فلنولي وجوهنا شطر أوربا..

وقد يكون اصطناع القبعة أكبر ما يقرب بيننا وبين الأجانب ويجعلنا أمة واحدة والقبعة هي رمز الحضارة، يلبسها كل رجل متحضر. إننا ستبقى في نظر أنفسنا ونظر الأوربيين شرقيين

حتى نتخذ القبعة لرجالنا ونلبسناها، ونعلن انسلاخنا من الشرق. ولغرامي بالحضارة الأوربية أحث بني وطني أن يلبسوا القبعة، لأنها تبعث فينا العقلية الأوربية..

هذا هو مذهبي، الذي أعمل له طول حياتي، سرًا وجهيرًا، فأنا كافر بالشرق، مؤمن بالغرب. وفي كل ما أكتب أحاول أن أغرس في ذهن القارئ تلك النزعات التي اتسمت بها أوربا في العصر الحديث، وأن أجعل قرآني يولون وجوههم نحو الغرب، ويتصلون من الشرق⁽¹⁾.

هكذا تكلم سلامة موسى، فبلغت «صراحته» حد «الوقاحة».. وكانت له فضيلة الإعلان عن كثير مما يبطن المنافقون من المتغربين!

وبهذا الإعلان أدرك عقلاء الأمة أن معركة الهوية والانتماء الحضاري قد غدت أخطر معارك الفكر والثقافة في القرن العشرين.. لأنها معركة «البقاء» لحضارة متميزة، أو «الفناء» في الأوربيين المستعمرين!

* * *

(1) سلامة موسى [اليوم، والغد] ص 5-7، 9، 179، 38، 183، 184، 190، 186، 74، 177-179، 194، 204، 205، 182، 187، 188، 200، 201، 178، 189، 203، 35-38، 205، 82. طبعة القاهرة 1928م.

طه حسين والانتماء للمدنية الأوروبية

■ وإذا كان سلامة موسى قد مثل قمة الغلو في تغريب الهوية والانتماء والولاء.. فلقد جاء كتاب الدكتور طه حسين [1306 - 1393هـ - 1889 - 1973م] (مستقبل الثقافة في مصر) الذي طبع سنة 1938م - أي بعد عشر سنوات من كتاب سلامة موسى [اليوم والغد] - جاء لتحقيق ذات المقاصد.. ولكن بلغة هادئة.. ومنطق مناسب لأدب الأستاذ العميد!

لقد وقَّعت مصر مع الاحتلال الإنجليزي معاهدة سنة 1936م.. التي أطلق عليها البعض: «معاهدة الشرف والاستقلال».. بينما رآها البعض: «معاهدة الاستقلال المنقوص»..

وفي أعقاب توقيع هذه المعاهدة، كتب الدكتور طه حسين كتابه هذا ليقرر فيه: أن «الاستقلال السياسي» عن الاحتلال الإنجليزي، لا يعني «الاستقلال الحضاري» عن أوروبا! فنحن أوروبيون في العقل والثقافة والحضارة والولاء والانتماء.. هكذا كنا في الماضي السحيق.. وهكذا يجب أن نظل حتى بعد الاستقلال السياسي عن الاستعمار والاحتلال!

نعم.. صدر كتاب الدكتور طه حسين ليحمل هذه «الدعوى» و«الدعوة».. وليقول: إن العقل الشرقي قد كان ولا يزال وسيظل عقلاً يونانياً.. وإن الإسلام والقرآن لم يغيرا من يونانية عقلنا الشرقي كما لم تغير النصرانية وإنجيلها من يونانية العقل الأوربي!

بل ذهب الدكتور طه - في هذا الكتاب - إلى أننا ملزمون بأن نسير سيرة الغرب في الحكم.. والإدارة.. والتشريع! وأننا لا نستطيع إحياء مقوماتنا السياسية والقانونية الموروثة! وأننا لا بد أن نأخذ النموذج الحضاري الغربي بكامله - بحلوه ومره، بخيره وشره، بما يُحِبُّ منه وما يُكره، وما يُحَمِّد فيه وما يُعَاب!!

هكذا قرر الدكتور العميد ذات المقاصد التي سعى إليها سلامة موسى.. ولكن دون «فجاجة» ولا «استفزاز».. وذلك عندما قال:
«إن العقل الشرقي هو كالعقل الأوربي، مرده إلى عناصر ثلاثة:

- 1 - حضارة اليونان، وما فيها من أدب وفلسفة وفن.
 - 2 - وحضارة الرومان، وما فيها من سياسة وفقه.
 - 3 - والمسيحية، وما فيها من دعوة إلى الخير وحث على الإحسان.
- وأن السبيل واضحة بينة مستقيمة ليس فيها عوج ولا التواء، وهي واحدة فذة ليس فيها تعدد، وهي أن نسير سيرة الأوربيين ونسلك طريقهم.. في الحضارة، خيرها وشرها، حلوها ومرها، ما يُحِبُّ منها وما يُكره، ما يُحَمِّد منها وما يُعَاب..
- وأن الإسلام قد تقبل الحضارة اليونانية، فلم لا يتقبل الحضارة الفرنسية؟ والحضارة الغربية والفرنسية قائمتان على أساس واحد هو الحضارة اليونانية اللاتينية، وهو في نهاية الأمر الحضارة الكلاسيكية.

لقد التزمنا أمام أوروبا أن نذهب مذهبها في الحكم، ونسير سيرتها في الإدارة، ونسلك طريقها في التشريع.. ولو أننا هممنا أن نعود أدرأجنا، وأن نحیی النظم العتيقة، لما وجدنا إلى ذلك سبيلاً، ولوجدنا أمامنا عقاباً لا تجاز ولا تذلل، عقاباً نقيمها نحن، لأننا حراس على التقدم والرقی وعقاباً نقيمها أوروبا، لأننا عاهدناها أن نسايرها ونجارها في طريق الحضارة الحديثة.. التزمنا هذا كله أمام أوروبا، وهل كان إمضاء معاهدة الاستقلال ومعاهدة إلغاء الامتيازات - [سنة 1938م] - إلا التزاماً صريحاً قاطعاً أمام العالم المتحضر بأننا سنسير سيرة الأوربيين في الحكم والإدارة والتشريع؟⁽¹⁾

وفي نص آخر.. ذهب الأستاذ العميد إلى تفنيد دعوى تيار الإحياء والتجديد - تيار الإمام محمد عبده - بضرورة النهوض بالإسلام، وتجديد موروثنا وتطويره ليلبي حاجاتنا النهضوية المعاصرة.. فقال:

« لا شك أن الشيخ محمد عبده قد هز العالم الإسلامي بأسره، وأيقظ العقل الشرقي، وعلم الشرقيين أن يحبوا حرية الفكر.. ولا ريب أيضاً في أنه أتاح لكثير من المسلمين أن يتطلعوا بأمل راسخ إلى يوم يتحقق فيه التوفيق بين العلم والدين، بين التقاليد الشرقية والحضارة الغربية..»

(1) د. طه حسين [مستقبل الثقافة في مصر] ج1 ص 29، 45، 36، 37، طبعة القاهرة 1938م.

ولكن العالم الإسلامي قد أصابه التغيير منذ ذلك العهد.. ولم يعد محمد عبده مواكباً للعصر.. لقد صارت كل أفكار محمد عبده بشأن العلم والدين بالية، فهي ليست بالأفكار التي مضى عليها زمن طويل، ولكنها لم تعد تتواءم مع انطلاق الشرقيين إلى الحرية الكبرى.

وقليل هم المسلمون الذين يهتمون بالتوفيق بين إيمانهم والمعارف التي حصلوها، وهم يندفعون بابتهاج نحو الحضارة الغربية، ويتخذونها مثلاً أعلى..

يضاف إلى ذلك، أن مذهب محمد عبده، في حد ذاته، لم يكن صالحاً للبقاء، فقد كان يعتمد على تفسير النصوص للتوفيق بين عبارات القرآن ذاتها وحقائق العلم كما نعرفها اليوم..

لقد صار المتمسكون بأراء محمد عبده وقاسم أمين يُعدون محافظين، بل ويُدرجون أحياناً بين المتخلفين⁽¹⁾!

ذلك هو أخطر ما قرره وكتبه طه حسين في قضية الانتماء الحضاري..

ولم تكن هذه هي المرة الأولى التي يطرق فيها طه حسين هذا المبحث.. ويتخذ فيها هذا الموقف - الدعوة للانتماء لحضارة

(1) د. طه حسين [من الشاطئ الآخر - طه حسين في جديده الذي لم ينشر سابقاً] ص 36، 37، 62 - وهي نصوص ترجمها عن الفرنسية ونشرها: عبد الرشيد الصادق محمودي - طبعة بيروت 1990م.

الغرب - فقبل نحو عشرين عاماً من صدور كتابه [مستقبل الثقافة في مصر].. كان قد أصدر كتابه [قادة الفكر] سنة 1925م.. وفيه بشر بهذه الدعوة، عندما صور الإسكندر الأكبر [356 - 323 ق.م] في صورة «المفكر الأكبر» الذي احترف فتح العقول.. لا فتح البلاد واستعمارها.. ومن ثم فإن علينا أن نلتحق بالحضارة الإغريقية التي جاءت بها هذا الإسكندر!

ولقد استخدم طه حسين «خياله الأدبي» في رسم هذه الصورة الجذابة للإسكندر الأكبر، ولحضارته - التي دعانا للانتماء إليها - فقال: «إن الأوربيين اتخذوا القاعدة الآتية في حياتهم، وهي أن ليس إلى فهم الحياة الحديثة على اختلاف وجوهها من سبيل إلا إذا فهمت مصادرها الأولى، ومصادرها الأولى هي الحياة اليونانية من جهة والرومانية من جهة أخرى. أو قل هي الحياة اليونانية، لأن حياة الرومان كانت في أكثر وجوهها متأثرة بالحياة اليونانية.

وإذا كنا أخذنا في العصر الحديث نسلك سبيل الأوربيين، لا في حياتنا العقلية وحدها، بل وفي حياتنا العملية على اختلاف فروعها أيضاً، فليس لنا بد من أن نسلك سبيل الأوربيين في هذه الحياة التي استعمرناها. أقول: إننا أخذنا في هذا العصر الحديث نسلك السبيل الأوربية في كل فروع الحياة، ونعدل عن حياتنا القديمة عدولاً يوشك أن يكون تاماً.. ما أحسب أننا نكتفي من هذه الحياة بتقليد القرود، وإنما أعلم أننا نريد أن نتخذها حياة لنا عن فهم وبصيرة، وإن فلننضمها قبل كل شيء، ولنتبين - إذا كان الأمر كذلك - كيف كانت حال الفكر في تلك العصور اليونانية الخصبية..

لقد كان الإسكندر قائد فكر قبل كل شيء، وبعد كل شيء، وفوق كل شيء... ولم يكن يريد أن يفتح الأرض وحدها، وإنما كان يريد أن يفتح معها العقل. بل قل إنه إنما كان يفتح الأرض تمهيدا لهذا الفتح العقلي، بل لا نستعمل كلمة «الفتح» فلم يكن الإسكندر فاتحًا بالمعنى الذي فهمته الأجيال المختلفة، لم يكن صاحب حرب وقهر وغلب، وإنما كان صاحب مودة ومحبة وإخاء وتسوية بين الناس...⁽¹⁾

هكذا رسم الخيال الأدبي الخصب لطله حسين - سنة 1925م - هذه الصورة المثالية للإسكندر الأكبر.. صورة «الفتاح للعقول.. صاحب المودة والمحبة والإخاء والتسوية بين الناس». وغفل وأغفل الإشارة - حتى مجرد الإشارة - للمطامع الاستعمارية التي قادت الإسكندر إلى هذه الفتوحات.. وللمعارك الدامية التي خاضها في الشرق.. وللقهر الحضاري الذي أسست له هذه الفتوحات الإغريقية في البلاد الشرقية.. والذي دام عشرة قرون حتى أزالته فتوحات الإسلام والمسلمين..

صنع طه حسين كل ذلك، ليقول لنا إن انتماءنا الحضاري هو للغرب.. ليس فقط في العصر الحديث.. وإنما منذ ذلك التاريخ اليوناني القديم..

* * *

(1) - طه حسين [قادة الفكر] طبعة القاهرة 1925م - والنقل عن عبد الله إبراهيم - صحيفة [الحياة] لندن في 29-12-2007م.

الانتماء الحضاري بين سيد قطب وطه حسين

فلما صدر كتاب طه حسين [مستقبل الثقافة في مصر] سنة 1938م.. وفصل فيه هذا التوجه - الذي بدأه في كتاب [قادة الفكر] سنة 1925م - كان طبيعياً أن يثير الكثير من الجدل - بل والمعارك الفكرية - في الحياة الثقافية والعقلية.. وكان طبيعياً أن يتصدى لدعواه هذه الكثيرون من الكُتَّاب والمفكرين والأدباء..

وكان من أبرز من تصدى له بالنقد «الهادي» والرصين.. والعبقري» الأستاذ سيد قطب [1324 - 1386 هـ - 1906 - 1966م].. الذي نشر نقده لكتاب طه حسين في (صحيفة دار العلوم) - العدد الرابع - إبريل سنة 1939م - تحت عنوان [نقد كتاب مستقبل الثقافة في مصر لطه حسين]..

وفي هذا النقد ميَّز سيد قطب - في كتاب طه حسين - بين:
1 - «المباحث المعقدة» التي عرض فيها طه حسين لانتماء مصر الحضاري، والتي حاول فيها إثبات أن العقل المصري هو عقل يوناني منذ نشأته الفرعونية.. ولا يزال كذلك حتى بعد التدين بالإسلام.. ويجب أن يظل كذلك مستقبلاً!

2 - وبين حديث طه حسين - في كتابه - عن «الدولة والتعليم العام».. وهو القسم الذي لم يكن مثار جدل فكري كبير في نقد سيد قطب لهذا الكتاب..

* * *

ولأن «المباحث المعقدة» - في كتاب طه حسين [مستقبل الثقافة في مصر] - هي الأخطر، لأنها تدور حول الانتماء الحضاري لمصر والعرب والمسلمين - أي تدور حول «المصير» - ولأنها لا تزال مثارة ومثيرة حتى الآن.. كان تركيزنا عليها - في هذه الدراسة التي نقدمها، والتي نتبعها بنقد سيد قطب لكتاب طه حسين.

■ ونحن نلاحظ أن سيد قطب - مع أدبه الشديد في الحوار مع طه حسين، ومع احترامه الشديد له - قد استخدم - في تنفيذ آرائه حول «المباحث المعقدة» - مباحث الانتماء الحضاري لمصر - ألقاظاً مثل «الرشاقة والخفة!! وشدة الحماسة وارتداء ثوب الخطيب!! والحنق الظاهر! والنهك والاستهزاء!»، بينما تحدث عن القسم الخاص بالتعليم - في الكتاب - فنوه بـ «الخصائص الطيبة للدكتور» في «العزوبة والصفاء النفسي، والصراحة الجميلة، والشجاعة الأدبية العالية، والتحليق الروحي الجميل، والهدوء الذي لا التواء فيه ولا تعقيد..».. الأمر الذي يجعل قارئ هذا الجزء من الكتاب - كما يقول سيد قطب: «يسير مع الدكتور في استرواح ولذة مرة، وفي إعجاب وحماسة مرات»..

■ ولقد لفت سيد قطب الأنظار إلى الموقف الوطني لطفه حسين، الذي يريد لأبناء مصر تعليماً وطنياً.. لا تعليماً أجنبياً، كما أراد الإنجليز الذين أفسدوا هذا التعليم.

■ كما لم يتردد في النقد الرقيق لما خالف فيه الدكتور من تفاصيل الحديث عن التعليم..

فهو ينتقد دعوة الدكتور إلى التوسع في تعليم اللغات الأجنبية، بإضافة الطليانية والألمانية واللاتينية واليونانية والفارسية والعبرية إلى الإنجليزية والفرنسية - أي ثماني لغات أجنبية - بعد المرحلة الابتدائية!

■ وهو يؤيد طه حسين في تقليص استقلال الأزهر، ويدعو إلى إشراف الدولة على معاهده الابتدائية والثانوية وكلية اللغة العربية، كي لا يبث المدرسون - من خريجياتها - الرجعية في ذهن التلاميذ!

« ويؤيده في ضرورة إصلاح قواعد العربية ونحوها وصرفها، وإصلاح الإملاء ليوافق النطق الكتابية.. وكذلك إصلاح دروس البلاغة.. ومناهج دراسة الأدب.. ويفيض في ذلك كثيراً.. وإن اختلف مع الدكتور في تقدير درجة سوء التي عليها حال تدريس هذه العلوم والفنون..

كما يختلف معه في نقده الشديد لدار العلوم وخريجياتها، وفي تفضيله خريجي الآداب على خريجي دار العلوم..

كذلك يسخر سيد قطب من دعوة الدكتور طه إلى تجديد «نحو البصرة والكوفة، كما تتجدد العلوم الطبيعية»! مستنكراً التسوية بين العلوم اللسانية القائمة على أسس ثابتة لا تزيد وبين العلوم الطبيعية المتجددة دائماً بالاكتشافات..

هذا هو موقف سيد قطب من الجزء الأخير - الخاص بالتعليم - في كتاب طه حسين..

* * *

أما الجزء الأول - جزء «المباحث المعقدة» - الخاصة بالانتماء الحضاري لمصر - فهو الذي قدم حوله سيد قطب ملاحظاته العبقريّة حول قضية الانتماء الحضاري، والتي تنم عن وضوح الرؤية والانتماء الحضاري الإسلامي لسيد قطب منذ هذه المرحلة المبكرة في إبداعه الفكري والأدبي.

وعلى سبيل المثال:

1 - ينقض سيد قطب - بالوقائع التاريخية - دعوى الدكتور طه حسين: أن مصر القديمة كانت يونانية الهوى إلى الحد الذي رضيت فيه بالمستعمرات اليونانية على أرضها.. ويثبت عكس هذه الدعوى، مدافعاً عن وطنية المصريين، وحبهم لوطنهم، وغيرتهم عليه وعلى استقلاله.

2 - ويبرهن سيد قطب على أن الانقسام السياسي بين الأقطار الإسلامية لم يحل دون وحدة العقلية الإسلامية للأمة التي جزأتها السياسة أقطاراً وأقاليم وأوطاناً، كما كان الحال في

المشرق العباسي والمغرب الأندلسي.. وخداه في العقل والحضارة،
مع تعدد في الحكومات داخل «دار الإسلام».

3 - وإذا كان طه حسين قد اجتهد ليجعل العقلية المصرية أوربية
غربية، لأنها - بالطبع - ليست هندية ولا صينية شرقية - فإن
سيد قطب ينكر ويستنكر منطقية هذا التقسيم.. ويرى العقلية
المصرية مصرية، فلا هي بشرقية الشرق الصيني - الهندي،
ولا هي بالإغريقية الأوربية.. وإنما هي مصرية شرقية..
وشرقية مصرية..

4 - كذلك ينكر سيد قطب واحدية العقل الشرقي - في الهند
والصين واليابان - وواحدية العقل الغربي - عند شعوب
الثقافات الأوربية ... فالذي يحدد طبيعة العقل الحضاري
ليست الجغرافية وحدها..

5 - وينفي سيد قطب دعوى طه حسين أن الإسلام لم يغير العقلية
المصرية لأنها كانت يونانية الفلسفة.. ويرى أن الفلسفة قد
توثر في الخاصة والنخبة وقطاع من الصغوة.. لكن الذي
يطبع عقلية الأمة ويصبغها هو الدين، بنظامه الروحي
وقوانينه ونظمه الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، وهي
خواص إسلامية مغايرة تماماً للفلسفة اليونانية..

6 - كذلك ينفي سيد قطب أوهام التأثيرات الفلسفية اليونانية في
العقلية المصرية القديمة.. ويقول:

« إن الفلسفة اليونانية لم تغد مزاينة الإسكندرانية، إلا في أحيان قليلة، وظلت «منف» - [العاصمة الوطنية لمصر القديمة] - محتفظة بفرعونيتها، حتى جاء الرومان فكرهتهم وأعرضت عنهم ما وسعها الإعراض..».

ثم يؤكد سيد قطب أن هذا لم يكن حال مصر ولا موقفها مع الإسلام، الذي دخلت فيه بكل كيائها، وتشربته حتى امتزج بها وامتزجت به.. وبعبارةه:

«.. ثم جاء الإسلام، فاعتنفته - مصر - راضية، وتأثرت به مع سائر البلاد..».

7 - كذلك يلفت سيد قطب الأنظار إلى أثر «الروح العربية - وهي من أقوى الأرواح في أمم العالم» - في تميُّز العقلية المصرية.. فالتميُّز العقلي - عنده - إنما يقوم على دعامتَي «الإسلام» و«العروبة»..

8 - كذلك ينقض سيد قطب دعوى طه حسين: مماثلة الإسلام للمسيحية.. ومماثلة القرآن للإنجيل - ومن ثم عدم تغيير الإسلام والقرآن للعقل المصري، كما لم تغير المسيحية وإنجيلها يونانية العقل الأوربي.. وينبه إلى تميُّز الإسلام عن المسيحية في «طبيعة الإله»، وفي علاقة هذا الإله بالنبي وقومه.. فهذه الطبيعة وهذه العلاقة هما في الإسلام غيرهما في المسيحية.. ومن ثم فإن تأثير الإسلام في عقلية الأمم التي اعتنقته مغاير لتأثير المسيحية في الشعوب التي اعتنقتها.. فالدينان يختلفان في «أهم أسس الأديان»..

فالمسيحية ورسولها قد وقفا فقط عند «الروحانية الشفيفة»،
بينما مثل الإسلام ورسوله وسنته منهاجاً شاملاً للحياة، ومن
ثم فاعلاً فيها وصابغاً لها..

9- وعلى حين ماثل طه حسين بين القرآن والإنجيل، لينفي تأثير
أي منهما في عقلية الشعوب التي تلتقتها، وأمنت بهما.. يرى
سيد قطب تميز القرآن - ومثله التوراة - عن الإنجيل.. فلقد
حوى «القرآن والتوراة - بعد اللاهوت - نظماً وشرائع
وحدوداً دينية واجتماعية واقتصادية وسياسية، بينما
الإنجيل يكاد يخلو من هذا كله..».

فالمسيحية وإنجيلها، لم تؤثر في أوروبا سوى التأثير الروحي
بينما كان تأثير الإسلام والقرآن متجاوزاً الحياة الروحية إلى
التشريع والاقتصاد والسياسة.. ومن ثم غير العقل وطبعه بطابع
جديد.. لقد ظلت دنيا أوروبا - بعد المسيحية - يونانية.. بينما كان
الإسلام ديناً ودنيا للذين اعتنقوه..

10- وعلى حين انحاز طه حسين إلى نظرية واحدة الحضارة
والعقلية.. وهي النظرية التي تركز تبعية الأطراف للمركز
الأوروبي.. فلقد انحاز سيد قطب لنظرية التعدد والتمايز بين
الحضارات والعقليات والثقافات.. ولذلك، دعا سيد قطب إلى
التمايز بيننا وبين أوروبا في «مناهج الثقافة» و«أنواع
التعليم النظري».. أما «العلوم التطبيقية فهي ملك للجميع»..

11 - وعندما يستدل طه حسين بأخذ مصر الحضارة الغربية في العصر الحديث على أن عقلية مصر - تاريخياً - هي عقلية أوروبية. ينقض سيد قطب هذا «الدليل» من كلام طه حسين نفسه، الذي قال: إن اليابان الحديثة قد أخذت بالحضارة الأوروبية.. مع أن عقلية اليابان - في رأي الدكتور - هي عقلية شرقية، لا أوروبية!!

كذلك ينقض سيد قطب دلالة الأخذ عن أوروبا على وحدة العقلية بين الأخذ والمأخوذ عنه ومنه، بما كتبه الدكتور عن تركيا - الأناطورية - التي قال عنها إنها هي التي أخرت أخذ مصر عن أوروبا خمسة قرون.. فيقول له سيد قطب: إن تركيا هذه هي التي «تشتط الآن في الأخذ عن أوروبا»! فأين وحدة العقلية الحضارية بين الأخذ والمأخوذ عنه؟!

إن أخذ أمة عن أخرى إنما هو ثمرة للتفاعل بين الأمم والحضارات، يأخذ الأقل تطوراً عن الأكثر تطوراً، دون وحدة في العقلية بين الأخذ والمأخوذ عنه.. وتلك سنة دائمة في العلاقات بين الحضارات.. أخذ العرب عن الإغريق.. وأخذت أوروبا عن العرب والمسلمين، وتأخذ نحن والصين واليابان اليوم عن أوروبا.. وليس بين الصين واليابان وبين الأوربيين - وفق مذهب الدكتور - وحدة في العقلية الحضارية..

12 - يصف سيد قطب الحضارة الأوروبية بأنها «حضارة مادية».. وأن بينها - لذلك - وبين «عقائدنا وتقاليدنا وضمائرنا»

تناقضات تحدث في نفوس الأخدين عنها وفي أرواحهم
«قلقاً واضطراباً».

13- ويستشهد سيد قطب - في نقده للحضارة الأوروبية - بقول
كاتب أمريكي عنها:

«إنها في نزاع واضطراب مع الإنسانية»..

14 - كما ينتقد سيد قطب دعوة طه حسين إلى «أن نندمج في
أوروبا اندماجاً»... وي طرح - بدلاً من هذا الشطط - الحل القائم
على «التفاعل بين الحضارتين والعقليتين»... حل التوسط
والوسطية، الذي يميز بين «الثقافة» - التي هي عمران
النفس الإنسانية - وفيها خصوصيتنا الحضارية التي يجب
الحفاظ على تراثنا فيها - مع تجديده - وبين «المدنية» التي
تشمل العلوم والفنون التطبيقية، وفيها يتمثل المشترك
الإنساني العام بين الحضارات والعقليات.. وبعبارة سيد
قطب:

«إن أيسر ما يحقق رغبة الدكتور - [طه حسين] - في الأخذ
بالحضارة الأوروبية، ويحقق رغبتنا في الإبقاء على مميزاتنا
الذاتية، أن نحلل هذه الحضارة إلى عنصرين: الثقافة والمدنية،
ونأخذ كلًّا منهما بأخر تعريف وضعه لهما العلماء؛ فنعتبر الثقافة
شاملة لديننا وفنوننا ونظمنا الخلقية وتقاليدنا وخرافاتنا كذلك.
وهذه يجب أن نحفظ فيها بماضيها، ونجدد فيها بمقدار ما
تتطلب سنة التطور الطبيعي».

ونعتبر المدنية شاملة للعلوم والفنون التطبيقية، وتلك
نأخذها من أوروبا أخذًا.

وهذا ما صنعه اليابان - التي يضربها الدكتور لنا مثلاً
أعلى - فما تزال الثقافة اليابانية باقية على أصولها، في الوقت
الذي أخذت بأخر مثل المدنية الأوروبية وزادت فيها..»

15 - ويكشف سيد قطب عن التناقض الذي وقع فيه الدكتور طه
حسين.. فهو - في كتابه [مستقبل الثقافة في مصر] - يرى
ضرورة الأخذ بالحضارة الأوروبية: خيرها وشرها.. ثم نراه يعود
- بعد كتابته هذا الكتاب - فيكتب - في العدد التاسع من مجلة
[الثقافة] - تعليقاً على كتاب [سندباد عصري] ⁽¹⁾ - فيقول:

«إن الذوق العام يختلف باختلاف البيئات، فهناك أشياء
يقبلها الذوق العام الأوربي، وينبو عنها الذوق العام المصري،
وليس على مصر من ذلك بأس، فليس من الضروري أن نُشبهه
الأوربيين في كل شيء، ولا أن نقلدهم في كل شيء..»

16 - ويرد سيد قطب على سخرية الدكتور طه حسين واستهزائه
بقول من يقولون بمادية الغرب وروحانية الشرق، بما كتبه
الأستاذ الفاضل أحمد أمين [1304 - 1373 هـ - 1886 - 1954 م]
- صديق طه حسين وزميله - عن هذه القضية: مادية الغرب
وروحانية الشرق.

(1) من تأليف الدكتور حسين فوزي [1318-1409 هـ - 1900-1988 م] - صدرت
طبعته الأولى سنة 1938 م.

فالغرب مادي، لأنه لا يؤمن إلا بالمادة، ويرى أن الفكر والعقل
والظواهر النفسية والعواطف ليست إلا شكلاً من أشكال المادة..
لأنه - [الغرب] - لا يؤمن بوجود فاعل وراء هذه المادة..
أما الشرق، فإنه روحاني، لأنه يؤمن - بجانب العالم المادي -
بوجود إله وعالم آخر.. فالفكر الإنساني في الروحانية الشرقية
ليس مجرد ثمرة للمادة الصماء..

* * *

تلك هي أبرز القضايا المتعلقة «بالمسائل المعقدة» في كتاب
الدكتور طه حسين [مستقبل الثقافة في مصر].. كما عرض لها
سيد قطب بالنظر.. والنقد.. والتفنيد..

* * *

الإياب الفكري للدكتور طه حسين

بقي أن نقول:

إن الدكتور طه حسين قد تجاوز الكثير من الآراء والاجتهادات التي تبناها في مرحلة انبهاره بالنموذج الحضاري الغربي - وإن كان هناك من لا يزالون متخندقين في مواقع هذه الآراء والاجتهادات.. بل ومتخندقين في الكتابات التي تجاوزها طه حسين!!

فهو - على سبيل المثال - :

■ بعد أن شكك - بكتابه [في الشعر الجاهلي] سنة 1926م - في «الصدق التاريخي» لقصص القرآن الكريم حول الرحلة الحجازية لأبي الأنبياء الخليل إبراهيم - عليه السلام - وزوجه هاجر وابنتهما إسماعيل - عليهم السلام - واقامتهم قواعد البيت الحرام..

واعترافه الصريح بهذا التشكيك.. وقوله:

«لقد انتهيت إلى رفض قدر كبير من هذا الشعر الجاهلي.. وفي إطار ذلك المسعى شككت في بعض المعتقدات التي ذُكرت في القرآن أو في الأحاديث النبوية. وكانت الصدمة قاسية والاستنكار واسع النطاق..»⁽¹⁾

(1) د. طه حسين [من الشاطئ الآخر] ص 63.

عاد طه حسين فحذف الأسطر الثمانيه والعشرين التي تضمنت هذا التشكيك من هذا الكتاب.. وزاد فيه.. وغير عنوانه إلى: [في الأدب الجاهلي].. ولم يعد طبع كتابه الأول طوال حياته. ثم عاد - بعد ذلك - في كتابه [الفتنة الكبرى] - ليتخذ الموقف الإيجابي.. وليكتب عن القرآن الكريم، فيقول:

«لقد قلت في بعض أحاديثي عن نشأة النثر عند العرب:

إن القرآن ليس شعراً، ولا نثراً، وإنما هو قرآن، له مذهب وأسالبيه الخاصة في التعبير والتصوير والأداء.

فيه من قيود الموسيقى ما يخيل إلى أصحاب السذاجة أنه شعر، وفيه من قيود القافية ما يخيل إليهم أنه سجع، وفيه من الحرية والانطلاق والترسل ما يخيل إلى بعض أصحاب السذاجة الآخرين أنه نثر.

ومن أجل هذا خدع المشركون من قريش، وكذبوا في ذلك تكذيباً شديداً.. ومن أجل هذا خدع كذلك بعض المتتبعين لتاريخ النثر، فظنوا أنه أول النثر العربي، وتكذبهم الحقائق الواقعة تكذيباً شديداً، فلو حاول بعض الكتاب الثائرين - وقد حاول بعضهم ذلك - أن يأتوا بمثله لما استطاعوا إلا أن يأتوا بما يضحك ويثير السخرية»⁽¹⁾.

وعندما يكتب طه حسين ذلك - وهو أحد بلغاء العصر.. والخبير بأسرار التركيب والإعجاز في الأساليب العربية - فيخرج القرآن

(1) د. طه حسين [الفتنة الكبرى] ج 1 - عمان - ص 32 - طبعة القاهرة 1984م

الكريم من الإطار الإنساني إلى إطار الوحي والإعجاز الإلهي..
فإنه يتجاوز - قطعاً - عما سبق واقتصره من التشكيك في الصدق
التاريخي لبعض قصص القرآن الكريم..

■ وهو، بعد أن كان داعية للعلمانية - بل ولعلمنة الإسلام -
وفصله عن السياسة والدولة والحكومة والملك.. والتسوية بينه
وبين المسيحية في ترك ما لقيصر لقيصر، والاكتفاء بما لله..
ووصف هذه المقولة النصرانية «بالكلمة البالغة».. بعد أن كان
هذا هو موقفه فيما كتبه مع الشيخ علي عبد الرازق - صديقه
وزميله - في [الإسلام وأصول الحكم] سنة 1925م.. واعترافه الذي
قال فيه:

«لقد قرأت كتاب الشيخ علي، قبل طبعه، ثلاث مرات، وعدلت
فيه كثيراً!»⁽¹⁾

عاد - سنة 1953م - ليقف - بجلاء وحزم - مع حاكمية القرآن
على الدستور والقوانين في المجتمع.. وليقول - في محضر
مداولات لجنة وضع الدستور -:

«إنه من المقطوع به أن الأغلبية لن تقبل أن تخرج، عند
وضع الدستور، على ما أمر به الإسلام، وأنه ليس هناك مقتض
يسمح لنا بأن نعدل عن نص القرآن.. وأنه إذا وجد نص ديني
صريح.. فالحكمة والواجب يقتضياننا ألا نعارض النص، وأن

(1) د. محمد الدسوقي [طه حسين يتحدث عن أعلام عصره] ص 70، 71. طبعة دار
المعارف - سلسلة «اقرأ» - القاهرة 1992م.

نكون من الحكمة ومن الأحياط بحيث لا نضر الناس في شعورهم، ولا في ضمائرهم، ولا في دينهم، وإذا احترمت الدولة الإسلام فلا بد أن تحترمه جملة وتفصيلاً.. ولا يكون الإيمان إيماناً ببعض الكتاب وكفرًا ببعضه الآخر..»⁽¹⁾

فبعد العلمانية.. وفصل الدين عن السياسة والدولة والحكومة.. عاد طه حسين ليدعو إلى الالتزام - في الدستور والقانون والمجتمع - بنص القرآن.. فلا نعدل عن نص القرآن.. ولا نعارضه.. وإنما نحترمه جملة وتفصيلاً.. حتى لا يكون إيماننا به إيماناً ببعض الكتاب وكفرًا ببعضه الآخر..

■ وبعد عامين من تاريخ هذا الموقف الجديد - للدكتور طه حسين - جاءت المناسبة التي تصاعد فيها موقف طه حسين إزاء الانتماء الإسلامي إلى ذروة جديدة، تجلى فيها «الموقف الحميمي» إزاء الإسلام..

ففي شهر جمادى الأولى 1374هـ - يناير 1955م - زار الدكتور طه حسين المملكة العربية السعودية رئيساً للجنة الثقافية للجامعة العربية، التي عقدت دورتها التاسعة في جدة.. وذلك على رأس كوكبة من المثقفين والأدباء العرب - وكان يصحبه في هذه الرحلة صديقه العلامة الشيخ أمين الخولي [1313 - 1385هـ - 1895 - 1966م]..

(1) لجنة مشروع الدستور - محضر لجنة الخريات والحقوق والواجبات العامة - الجلسة السابعة - ص 81-121 - طبعة وزارة الإرشاد القومي - القاهرة - بدون تاريخ.

وفي خطاب طه حسين بالمؤتمر انفتح قلبه فتحدث عن مهبط
الوحي ومشرق الإسلام، فقال:

«سادتي.. لقد سبق لي أن عشت بفكري وقلبي في هذه
الأماكن المقدسة زهاء عشرين عاماً، منذ بدأت أكتب [على هامش
السيرة] حتى الآن..»

ولما زرت مكة والمدينة، أحسست أنني أعيش بفكري وقلبي
وجسدي جميعاً. عشت بعقلي الباطن وعقلي الواعي.. استعدت
كل ذكرياتي القديمة، ومنها ما هو من صميم التاريخ، ومنها
ما هو من صميم العقيدة. وكانت الذكريات تختلط بواقعي فتبدو
جقائق حياء، ورموزاً حياء، وكان الشعور بها يغمرني، ويملاً
جوانح نفسي.

والآن أريد أن أقول لكم الحق كل الحق الذي لا نصيب لسرف
فيه من قريب أو بعيد:

إن لكل مسلم وطنين، لا يستطيع أن يشك في ذلك شكاً قوياً
أو ضعيفاً، وطنه الذي نشأ فيه، وهذا الوطن المقدس الذي أنشأ
أمته وكون عقله وقلبه وذوقه وعواطفه جميعاً.

هذا الوطن المقدس الذي هداه إلى الهدى، والذي يسره للخير،
والذي عرفه نفسه، وجعله عضواً صالحاً مصلحاً في هذا العالم
الذي نعيش فيه.

أعترف - أيها السادة - بأنني حين شرفني مجلس الجامعة
العربية لاختياري مشاركاً في اللجنة الثقافية للجامعة، ترددت في

قبول هذا الشرف، لأن فيه أعباء لا ينهض بها إلا أولو العزم، ولكني لم أكد أسمع أن الدورة ستنعقد في هذا الوطن الكريم العزيز، حتى أقبلت غير متردد ولا محجم، بل أقبلت يدفعني هذا الشوق الطبيعي الذي تمتلئ به قلوب المسلمين جميعاً، مهما تكن أوطانهم، ومهما تكن أطوارهم.. فهذا الوطن العزيز الكريم وطن العروبة ووطن الإسلام، لهذا الوطن أقدمت على قبول هذا الشرف وأنا أستعين الله أن يتيح لي أن أنهض بأعبائه، وهي أعباء ثقال لا شك في ثقلها.. هكذا صعد طه حسين - على معراج التحول الفكري - إلى القمة..

فبعد أن كان ينكر أي دور للإسلام في تكوين العقل المصري والشرقي.. وأي دور له في السياسة والدولة والحكومة والوطن.. ها هو يرى الإسلام ووطناً مقدساً.. بل هو «الوطن المقدس لكل المسلمين على اختلاف الأوطان التي نشأوا فيها.. وهو الذي كَوَّن الأمة الإسلامية.. وكَوَّن العقل والقلب والذوق والعواطف جميعاً، بالنسبة لكل المسلمين عبر الزمان والمكان».

ويزيد من خطر هذه الذروة من نرى التحولات الفكرية التي صعد إليها الدكتور العميد.. أنها لم تكن فقط موقفاً «فكرياً» أثمره «عقل» طه حسين.. وإنما كان موقفاً جامعاً أثمره العقل والقلب والذوق والعواطف بالنسبة لطله حسين..

■ وبعد الفراغ من المؤتمر - في جدة - ركب طه حسين - وبصحبه الشيخ أمين الخولي - السيارة قاصدين البيت الحرام - بمكة المكرمة - لأداء العمرة..

وشهد مرافقوه - طوال الطريق - كيف كان الرجل متنقلاً بين تلاوة آيات من القرآن الكريم، وبين التلبية: لبيك اللهم لبيك.. لبيك لا شريك لك لبيك.. إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك. لبيك».

وكيف كان يقطع هذا الاستغراق الصوفي ليسأل عن المكان الذي تمر به السيارة أو تحاذيه، ليعيش ذكريات تاريخ الإسلام ورسوله - ﷺ -.. حتى إذا قالوا له: إنهم بمحاذاة «الحديبية» - حيث نزل الرسول ﷺ - وصحابته سنة 6هـ معتمرين - طلب طه حسين من السائق أن يتوقف، ثم ترجل، وقبض من تراب الحديبية قبضة فشمها، ثم تمتم - ودموعه تنساب على التراب - قائلاً:

- «والله إنني لأشم رائحة محمد - ﷺ - في هذا التراب الطاهر».

وعلى مدى نصف ساعة - في محاذاة الحديبية - بذل مرافقوه جهدهم كله في تهدئة روعه!.. وكفكفة دموعه! ثم واصل الركب سيره إلى مكة المكرمة حتى دخلوا الحرم من باب السلام، وطه حسين لا يكاد يخفي زلزلة إيمانه عن رفيقه - [الشيخ أمين الخولي] - فتوجهوا إلى الكعبة، فاستلم الحجر وقبّله.. ولم يغادر مكانه، بل ظل يتنهد ويبكي ويقبل الحجر حتى وقفت مواكب المعتمرين الطائفين انتظاراً لأن يغادر هذا الأديب الكبير المكفوف مكانه، ولكنه - كما يقول الشيخ أمين الخولي - أطال البكاء والتنهيد والتقبيل، ونسي نفسه، فتركه المعتمرون الطائفون في مكانه، وأجهشوا معه في البكاء والتنهيد...!!⁽¹⁾

(1) مجلة [الحج والعمرة] - مكة المكرمة - حسين محمد بافقيه - المقال الافتتاحي - العددان 1، 2 - محرم وصفر 1426هـ.

هكذا كانت الرحلة الحجازية لطفه حسين - 1374هـ - 1955م
معراجاً إلى ذروة الانتماء - العقلي والقلبي والعاطفي - للإسلام:
الدين.. والحضارة.. والثقافة.. و«الوطن المقدس» الذي أشرق بنور
الإسلام، فولدت من رحمه أمة الإسلام ولادة متميزة في الدين
والدنيا عن غيرها من الأمم والشعوب.

* * *

■ أما عن كتابه [مستقبل الثقافة في مصر] - الذي مثل قمة
الدعوة إلى انتماء العقل المسلم إلى الحضارة الغربية - القديمة
والحديثة - فلقد امتنع طه حسين - طوال حياته - عن إعادة طبع
هذا الكتاب - دون سائر كتبه، التي كان يُعاد طبعها بانتظام!
ولما سُئِلَ عنه - في حديثه إلى صحيفة [الأهرام] أول مارس
سنة 1971م - قال:

«ده كُتِبَ سنة 1936م. قدم قوي. عاوز يتجدد. ويجب أن أعود
إليه، وأصلح فيه بعض حاجات. وأضيف».
فكان ذلك إعلاناً عن مراجعته لبعض ما جاء في هذا الكتاب..
وخاصة «المسائل المعقدة» التي دار حولها الجدل في ذلك
التاريخ..

* * *

وفي سنة 1944م أصبح مفتشاً بالتعليم الابتدائي.. ثم انتقل إلى الإدارة العامة للثقافة في سنة 1945م..

وفي القاهرة أتقن سيد قطب الإنجليزية، وتأثر بأدبها.. وكانت له موهبة فنية وشعرية وأدبية ومملكة نقدية فذة نمت بتلمذه على الأستاذ عباس محمود العقاد [1306 - 1384هـ - 1889 - 1964م] - بعد فترة عابرة من الإعجاب بالدكتور طه حسين⁽¹⁾ - حتى أصبح من «مريدي» العقاد، وأقرب تلاميذه إليه.. ثم استقل سيد قطب برأيه عن أستاذه، نازعاً إلى الاعتراف من المتابع لا من الأستاذ..

ولقد عرفت انتماءاته السياسية مراحل متميزة.. من «حزب الوفد» إلى «الهيئة السعدية» إلى «الإخوان المسلمين».. وعرفت حياته الفكرية، هي الأخرى، مراحل متميزة.. ففي البداية كان شاعراً وأديباً وناقداً، خاض العديد من المعارك النقدية ضد كثير من أعلام الأدب والنقد في عقدي الثلاثينيات والأربعينيات من القرن العشرين.. وفي هذه المرحلة لم تكن عبقريته الإسلامية قد اكتملت نضجها.. وإن كان انتماؤه الحضاري الإسلامي قد تألق في نقده لكتاب طه حسين..

وفي سنة 1945م بدأ أولى دراساته الفنية الإسلامية [التصوير الفني في القرآن]..

(1) أي أن سيد قطب قد كتب نقده لطله حسين وهو مدرس بالابتدائي.. ولعل هذا الموقف أن يكون من أسباب تحوله عن الإعجاب بطله حسين إلى الإعجاب بالعقاد.. الذي كان يكتب الإسلاميات والعبقريات في ذلك التاريخ.

وفي سنة 1948م بدأت علاقاته الفكرية - «التنظيمية» -
بفصائل التغيير والإصلاح والتجديد، ذات النزعة الإسلامية..
فشارك في رئاسة تحرير مجلة «الفكر الجديد» - التي كانت
تصدرها جماعة الإخوان المسلمين - وكتب فيها - عدد يناير سنة
1948م - مشروعاً لتقنين الفكر الاجتماعي والاقتصادي
الإسلامي.. وبدأ يسهم في تحرير صحيفة «الاشتراكية» - لسان
الحزب الاشتراكي - و«اللواء الجديد» - لسان اللجنة العليا للحزب
الوطني -.

ولقد صحب هذا التطور الفكري تطور في معايير النقد الأدبي
والفني لديه، فانتقد - في سنة 1949م - استلهام توفيق الحكيم
[1316 - 1407هـ، 1898 - 1987م]، في مسرحيته «أوديب»،
الأساطير الإغريقية وعقائدها الوثنية المنافية للإسلام، ودعاه
إلى أخذ «قوالب» الغرب الفنية دون «مضامينه» العقديّة
والفكرية..

وفي نهاية سنة 1948م سافر في بعثة إلى الولايات المتحدة
الأمريكية مدتها عام، للاطلاع على التربية وأصول المناهج،
فشاهد الوجه المادي والتحلل الخلقي والإفلاس القيمي للحضارة
الغربية - ذات الليبرالية.. الرأسمالية المتوحشة - رغم إنجازاتها
المادية العملاقة.. فنما عزمه على «العمل الإسلامي»، ليس
الفكري فقط، بل تحقيق «شيء أكبر»..!

ولقد شهد - وهو بأمريكا - فرحة الدوائر الصليبية باغتيال
الشيخ حسن البنا [1324 - 1368هـ 1906 - 1949م] في 12 فبراير

سنة 1949م فأدرك عمق العداء الغربي - والأمريكي - للإسلام عندما يكون منهاجاً شاملاً للحياة.. وكتب عن الإسلام الذي تريده أمريكا - «الإسلام الأمريكي» - يقول:

«إن الإسلام الذي يريده الأمريكان، وحلفاؤهم في الشرق، ليس هو الإسلام الذي يقاوم الاستعمار، وليس هو الإسلام الذي يقاوم الطغيان، ولكنه فقط الإسلام الذي يقاوم الشيوعية.

إنهم لا يريدون للإسلام أن يحكم، ولا يطبقون من الإسلام أن يحكم، لأن الإسلام حين يحكم سينشئ الشعوب نشأة أخرى، وسيُعَلِّم الشعوب أن إعداد القوة فريضة، وأن طرد المستعمر فريضة، وأن الشيوعية كالأستعمار وباء، فكلاهما عدو، وكلاهما اعتداء..»

الأمريكان وحلفاؤهم، إذن يريدون للشرق «إسلاماً أمريكانياً»، يجوز أن يُستفتى في منع الحمل، ويجوز أن يُستفتى في دخول المرأة البرلمان، ويجوز أن يُستفتى في نواقض الوضوء، ولكنه لا يُستفتى أبداً في أوضاعنا الاجتماعية أو الاقتصادية أو نظامنا المالي، ولا يُستفتى أبداً في أوضاعنا السياسية والقومية، وفيما يربطنا بالاستعمار من صلات، فالحكم بالإسلام، والتشريع بالإسلام، والانتصار للإسلام، لا يجوز أن يمسها قلم ولا حديث ولا استفتاء»⁽¹⁾ في الإسلام الأمريكي.

(1) سيد قطب [أمريكا من الداخل] والنقل عن: د. جابر قميحة - صحيفة «أفاق عربية» القاهرة في 27-12-2001م.

وفي سنة 1949م صدر لسيد قطب أول أعماله الفكرية - الاجتماعية الإسلامية - الهامة: [العدالة الاجتماعية في الإسلام]. وكان عام 1951م - بالنسبة لمرحلته الإسلامية - متميزاً، ففيه صدر له كتاب [معركة الإسلام والرأسمالية] وكتاب [السلام العالمي والإسلام].. وفيه - وهذا هام - بدأ تفسيره للقرآن الكريم - [في ظلال القرآن] -.. وبدأ يكتب في مجلة الإخوان [الدعوة].. ولقد عبر عن هذه «النقطة النوعية» بقوله: «لقد ولدت سنة 1951م»..!

وفي سنة 1952م كتب في مجلة [الرسالة] مقالاً بعنوان: «عدونا الأول: الرجل الأبيض».. تعبيراً - في تطوره الفكري - عن توازي الوعي بتميز الخيار الحضاري الإسلامي بالوعي بمخاطر النموذج الغربي على النهضة الإسلامية..

وحتى قيام ثورة 23 يوليو 1952م، كان سيد قطب - بالنسبة للالتزام الحركي - لا يزال من «أصدقاء الدعوة الإسلامية».. لكنه انضم - تنظيمياً - للإخوان المسلمين عقب الثورة، وأشرف على قسم نشر الدعوة في الجماعة.

وفي مرحلة الوفاق بين الثورة والإخوان - ولهم في التمهيد للثورة وفي قيامها وحماتها الدور الأكبر - دافع سيد قطب عن الثورة، في كتابات كثيرة، واختير مستشاراً لمجلس قيادة الثورة للشئون الثقافية والعمالية، وعين سكرتيراً مساعداً «لهيئة التحرير» - تنظيمها السياسي الأول - الذي تأسس في يناير سنة 1953م -

وعقب الخلاف بين الإخوان والنزرة - بعد توقيع اتفاقية الجلاء في 27 يوليو 1954م - رأس سيد قطب تحرير مجلة «الإخوان في المعركة» - وهي مجلة الجماعة السرية، المتأونة للثورة.. ودخل السجن عقب أكتوبر 1954م.. وحكم عليه بالأشغال الشاقة خمسة عشر عاماً.. لكن الرئيس العراقي عبد السلام عارف [1921 - 1966م] - الذي كان معجباً بتفسير سيد قطب للقرآن - [في ظلال القرآن] - طلب الإفراج عنه، فصدر له «عفو صحي» في مايو 1964م.. بعد عشر سنوات من السجن والتعذيب، انتقلت بفكره «نقطة نوعية»، فحكم على المجتمعات الإسلامية كلها بالجاهلية والكفر.. بل وحكم بارتداد «الامة» وانقطاع الإسلام منذ قرون.. وكتب - في معالم في الطريق] - يقول: «إن وجود الأمة المسلمة يعتبر قد انقطع منذ قرون كثيرة» والمطلوب: جعلهم «مسلمين من جديد»⁽¹⁾

وعن هذه المرحلة عبرت كتبه: [هذا الدين] و[المستقبل لهذا الدين] و[معالم في الطريق] والإضافات التي أدخلها على [الظلال] و[العدالة الاجتماعية]..

وبعد خمسة عشر شهراً من الإفراج عنه، أدخل السجن من جديد - في أغسطس 1965م - متهماً بقيادة تنظيم جديد يتبنى نظرية فكره الجديد.. فحوكم.. وأعدم - في 26 أغسطس 1966م - تاركاً من الآثار الفكرية 24 كتاباً.. وديوان شعر.. و110 قصائد..

(1) انظر كتابنا [الصحة الإسلامية والتحدى الحضاري] ص153 طبعة دار الشروق 1991م.. وكتابنا [مقالات الغلو الديني واللاذيني] ص26 طبعة مكتبة الشروق الدولية 2004م و[معالم في الطريق] ص8، 173 طبعة دار الشروق 1980م.

وثلاث قصص للأطفال.. وأربع صور قصصية.. وكتاب خواطر - بالاشتراك مع إخوته - وروايتين.. وسيرة ذاتية.. و487 مقالة.. وعدداً من المقدمات التي كتبها لعدد من الكتب.. وتاركاً باباً جديداً لفصيل جديد من فصائل الصحوة الإسلامية المعاصرة، يرفض كل الواقع.. ويدعو لتغييره بالقوة..

لقد سار سيد قطب على درب الاستشهاد، مؤمناً بما قدمت يده.. بل لقد تنبأ بذلك عندما كتب في [معالم في الطريق]:

«وتتبدل الأحوال، ويقف المسلم موقف المغلوب المجرد من القوة المادية، فلا يفارقه شعوره بأنه الأعلى، وينظر إلى غالبه من عل ما دام مؤمناً، ويستيقن أنها فترة وتمضي، وأن للإيمان كرامة لا مفر منها..

وهبها كانت القاضية، فإنه لا يحني لها رأساً. إن الناس كلهم يموتون، أما هو فيستشهد، وهو يغادر هذه الأرض إلى الجنة، وغالبه يغادرها إلى النار، وشتان شتان، وهو يسمع نداء ربه الكريم: ﴿لَا يَغْرُنْكَ تَلَقُّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ (١٩٦) مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَاؤَاهُمْ جَهَنَّمَ وَيَسُومُ السُّمُومَ (١٩٧) لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نَزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ﴾ [آل عمران: 196 - 198] ⁽¹⁾.

(1) [معالم في الطريق] ص170. طبعة دار الشروق 1400هـ - 1980م. وانظر كذلك د. محمد حافظ دياب [سيد قطب: الخطاب والأيدولوجيا] طبعة القاهرة 1987م.

هذا هو سيد قطب - الذي كتب أبلغ رد على كتاب الدكتور طه حسين [مستقبل الثقافة في مصر] سنة 1939م - وهو في الثالثة والثلاثين من عمره.. والذي دفع حياته، فمات شهيداً في سبيل رأيه سنة 1966م.. وهو في الستين من عمره.. والذي ظل موضع الاحترام والإجلال من خصومه وأنصاره على حد سواء..

* * *

وتلك إشارات إلى قصة فكرنا الحديث مع قضية [الانتماء الحضاري: للغرب؟ أم الإسلام؟].. والموقف من «الهوية الحضارية»: شرقية إسلامية هي؟.. أم أوروبية غربية؟..
والآن..

إلى النص الذي كتبه الأستاذ سيد قطب.. وحاور به الدكتور طه حسين حول هذه القضية.. التي لا تزال تثير الجدل حتى هذه اللحظات.. قضية: [الانتماء الحضاري: للغرب أم الإسلام؟].
والله نسأل أن يهدي اللاحقين كما هدى السابقين - في هذه القضية - إلى كلمة سواء.. إنه - سبحانه - أفضل مسئول وأكرم مجيب.

* * *

(12)

النص - المحقق - لدراسة سيد قطب

نقد كتاب

«مستقبل الثقافة في مصر»

لظنه حسين⁽¹⁾

(1) نشر الأستاذ سيد قطب هذه الدراسة النقدية بـ [صحيفة دار العلوم] - العدد الرابع - إبريل 1939م، وشغلت الصفحات من 28 إلى 79.
ثم أعاد الأستاذ الدكتور الطاهر مكي نشرها - أخيراً - بذات الصحيفة - عدد 17 - من الإصدار الرابع - ص 6 - 47، في رجب 1422هـ أكتوبر 2001م - ولقد تمت مراجعتها على الأصل لاستكمال السقط وتلافي الأخطاء وتمت الترجمة لأهم الأعلام الذين ورد ذكرهم في عنتها.

لا شك أن كتاب الدكتور طه حسين بك عن [مستقبل الثقافة في مصر] هو كتاب الموسم، وهو لهذا جدير بالعرض والنقض، جدير بالبحث والمناقشة.

وليس هو كتاب الموسم فحسب، ولكنه الكتاب الأول من نوعه بعد الاستقلال⁽¹⁾ الذي يرسم سياسة كاملة للثقافة النظرية؛ ابتداء من التعليم الأولي، إلى نهاية التعليم الجامعي، ملاحظًا ما يجب أن يتوافر لخطوات التعليم المتوالية من التناسق والانسجام، متمشيًا في مراحلها كلها بروح واحدة، وعقلية واحدة ترمي إلى هدف، وتصل إلى غاية، وليس هذا بالعمل اليسير.

وقد أثرت أن أقول: إنه يرسم سياسة كاملة للثقافة النظرية. مع أنه قد ألمَّ بالدراسة في كليات الهندسة والزراعة والطب والتجارة والعلوم التطبيقية عامة؛ ولكن من الحق أن يقال: إنه لم يتحدث عنها، لأن الدكتور نفسه لم يقصد إلى أن يتحدث عنها، بل أثر أن يدعها لمن هم أعلم بها، وأكثر دراية بشؤونها.

ولم يرسم هذا الكتاب الضخم سياسة التعليم فحسب، أو سياسة الثقافة المدرسية فحسب، ولكنه تجاوزها إلى ما بعد

(1) أي بعد عقد معاهدة 1936م بين مصر وإنجلترا. التي اعترفت فيها بإنجلترا باستقلال مصر، مع وجود عسكري لإنجلترا في مصر، يتم التفاوض حوله مستقبلاً.

مراحل التعليم كلها، إلى ثقافة المجتمع وعواملها: إلى المسرح والخيالة والمذيع والصحافة، وتجاوزها إلى الأدب والأدباء والجو الأدبي، وإلى واجب الدولة والهيئات للبحث العلمي والنشاط الفكري، وإلى كل ما يتصل بكلمة «ثقافة» بأوسع معانيها، وفي أوسع حدودها، ملائماً بين كل مرحلة والتي قبلها والتي تليها، مما يجعل هذا المؤلف دستوراً جامعاً للثقافة في مصر، كما يريد مؤلفه.

هذا النحو من البحث جديد في مصر؛ جديد إن لم يكن بموضوعه ومادته فبشكله وتنسيقه، فالواقع أن الكثير الغالب من هذه الأفكار التي حوّاها الكتاب خاضت فيه الأقلام والمحاضرات والأحاديث والتقارير، وتناولته دروس الأساتذة في دار العلوم بالذات في محاضرات التربية وسواها، وبعضها من البداهة بحيث لا يحتاج لأن يتناوله حديث أو محاضرة؛ لأنه من الموضوعات المكشوفة المكرورة، ولكن الجديد فيه بعد هذا وذلك أنه بحث جامع متناسق شامل لمراحل الثقافة كلها، والغاية منها جميعاً.

ونحن قد اعتدنا أن نبحث في كل مرحلة من مراحل التعليم على حدة، وأن تفصل بين الحديث عن الثقافة في المدرسة والثقافة في المجتمع، واعتدنا أن نبحث كل لون من ألوان الثقافة منفرداً، وألا نرسم لأنفسنا وجهة محدودة، وغاية أساسية من هذه الثقافات جميعاً. واعتدنا تبعاً لهذا كله كثيراً من القوضى، وكثيراً من التخبط في اتجاهاتنا، وكثيراً من التعارض، وكثيراً

من التناقض بين غاياتنا القريبة من كل برنامج؛ لأنها غايات متنافرة لم تضمها غاية واحدة واضحة مرسومة للجبل كله، إن لم نقل للأجيال كلها.

والدكتور في هذا العمل الضخم الذي قام به وحده، يخطئ ويصيب، أو على الأقل نرى نحن أنه يخطئ ويصيب، ويجاوز الغاية حيناً، ويقصر عنها حيناً، وتصفو نفسه ويرتفع مداه تارة، وتشوب الغايات القريبة خاطره وتغلبه على استقامة المنطق تارة.. ولكنه بعد هذا وذلك خليق بالاعتراف بعمله العظيم، خليق بتقدير هذا العمل، لأن كل من في الوجود يخطئ ويصيب.

وقد آثرت أن تكون (صحيفة دار العلوم) معرضاً لأرائي في هذا الكتاب، فأحب أن أنبه هنا إلى أنني لم أؤثرها لأنها مجلة الطائفة التي أنتمي إليها، أو لأنني متأثر فيما أؤثر من الآراء هنا بأراء طائفة بعينها، متجه إلى عقليتها العامة - أو ما يظن أنه عقليتها العامة - حين يهاجمها الدكتور في هذا الكتاب.

فالواقع - الذي يعلمه إخواني، والذي أحسب أن الدكتور يعلمه كذلك - «أنني مستقل الفكر عن كل عقلية عامة أو خاصة» وأنني لا أعيش ولا أستطيع أن أعيش في جو الطوائف وأن مدار حكمي على الأشياء ما يمليه عليّ مذهبي الخاص في الحياة، هذا المذهب الذي أحسبني عبرت عنه أوضح تعبير فيما كتبت في الصحف من آراء في الأدب والنقد، وأقربه ما نشر في مجلة «الرسالة» في خلال ستة أشهر عما «بين القديم والحديث» وما نشر في عديدين من صحيفة دار العلوم عن «الدلالة النفسية

للألفاظ والأساليب العربية»، وفي كلا البحثين نَظَر هذه العقلية المستقلة، ويبدو هذا المذهب الخاص.

إنما آثرت «صحيفة دار العلوم» لأنها مجلة أساتذة يشتغلون بالثقافة في المدارس خاصة، فالكتاب يهمهم أول ما يهم أحدًا في مصر، ولأنها صحيفة هادئة الطابع، رزينة الاتجاه، وهذه صفات لا تتوافر مجتمعة في صحيفة أو مجلة من صحفنا ومجلاتنا.

وفي هذا الكتاب ما نوافق الدكتور فيه أشد الموافقة. وفيه ما نخالفه فيه أشد المخالفة، وفيه ما يحتمل الأخذ والرد والزيادة والنقصان.

وقد كان هذا التقسيم نفسه صالحاً لترتيب الحديث في هذا البحث. ولكنني آثرت أن أسير مع المؤلف في ترتيبه لكتابه، فللدكتور استطرادات جميلة من فصل إلى فصل، ومن موضوع إلى موضوع؛ وله كذلك قفزات ذهنية عجيبة بين المقدمات والنتائج، وبين بعض هذه النتائج وبعضها الآخر؛ وفي تتبع تلك الاستطرادات، وتقصي هذه القفزات متاع عقلي خصب ليس من المستحسن أن يحرم منه القراء!

والآن فلنستخر الله، ونأخذ في الحديث عن كتاب الدكتور.

* * *

مصر شرقية أم غربية؟

للدكتور وجهة عامة في كتابه: أن تكون ثقافتنا في المستقبل ثقافة أوروبية خاصة. وأن يكون اتجاهنا في الحياة اتجاهًا أوروبيًا خالصًا. وأن نتأثر بأوروبا كما تأثرت بها اليابان، في غير تردد ولا تلكؤ، وبلا انتقاء أو تمحيص أو اختيار.

وهو لا يحب أن تكون هذه الوجة ابتداء، ولا أن تكون جديدة يبتدعها هذا الجيل. لأنها في هذا الوضع تثير اعتراضات يتوقاها هو أشد التوقي، بل يريد لها أن تكون امتدادًا للقديم، واتباعًا للماضي، وهو لهذا يقرر في سبعين صفحة من صفحات الكتاب هذه النظرية: أن مصر أمة غربية وليست أمة شرقية، وأنها كانت غربية منذ عهد الفراعنة حتى اليوم، ولم تكن يومًا ما شرقية، ولم تطق أن تكون يومًا ما شرقية!

وهو يعني بالغرب هنا أوروبا، ويعني بالشرق الهند والصين واليابان. ويتجنب أن يذكر غيرها من الأمم إلا تلميحًا إلى فارس وجزيرة العرب، لحكمة سنعلمها فيما بعد!

وفي هذا الفصل أروع قفزات الدكتور الذهنية التي حدثتك عنها أنفًا. بل فيه تتجمع كل هذه القفزات ما عدا قليلاً منها ينسرب فيما بعد في الكتاب كله.

وليس هناك اعتراض جدي على الحقائق الرئيسية التي جاء بها في هذا الفصل. فقد يكون معظمها صحيحًا في ذاته، ولكن الاعتراض على الطرق العقلية التي يسلكها إلى هذه الحقائق:

ولما كان الدكتور عميداً لكلية الآداب. ومن زعماء الأدب والثقافة في هذا الجيل، فإنه لا يعنينا منه أن يذكر لنا حقائق صحيحة في جملتها، بل يعنينا أكثر أن تكون الطرق العقلية إلى هذه الحقائق صحيحة كذلك، حتى يكون نموذجاً كاملاً لتلاميذه الكثيرين، ولمريديه الكثيرين أيضاً.

ونحن لهذا وحده سنتتبع بشيء من الدقة والتطويل آراءه في هذا الفصل. وإن كنا نعلن مقدماً أننا معه - في شيء من التلطيف والتعديل - في الغاية الأخيرة التي رمى إليها من كتابته. إنما المتاع العقلي الطريف في هذه المناقشة وتصحيح بعض الفكرات الجزئية، هو الذي يجذبنا إليها.

■ ويبدأ الدكتور الحديث هكذا:

«ولكن المسألة الخطيرة حقاً، والتي لا بد من أن تجليها لأنفسنا تجلية تزيل عنها كل شك، وتعصمها من كل لبس، وتبرئها من كل ريب هي أن نعرف: أمصر من الشرق أم من الغرب؟ وأنا لا أريد بالطبع الشرق الجغرافي والغرب الجغرافي، وإنما أريد الشرق الثقافي والغرب الثقافي...»

«فهل العقل المصري شرقي التصور والإدراك والفهم والحكم على الأشياء؟ أم هل هو غربي التصور والإدراك والفهم والحكم على الأشياء؟ وبعبارة موجزة جلية: أيهما أيسر على العقل المصري: أن يفهم الرجل الصيني أو الياباني أو أن يفهم الرجل الفرنسي أو الإنجليزي؟»

ووضع المسألة في هذا الوضع تتجلى فيه كل مهارة الدكتور في المناقشة: فهو قد قسّم الدنيا قسمين اثنين لا ثالث لهما: قسم تمثله الصين واليابان، وإن شئت فضم إليهما الهند وأندونيسيا، وقسم تمثله فرنسا وإنجلترا وإن شئت فضم إليهما كل دول أوروبا وأمريكا.

فلا بد للإجابة عن سؤال الدكتور في هذا الوضع أن تكون مصر أمة غربية: لأنها - بلا تردد وبدون شك - تفهم الإنجليزي والفرنسي أكثر مما تفهم الصيني والياباني في هذا الزمان! وهذا ما قصد إليه الدكتور من توجيه السؤال على هذا المنوال.

ولكن - لا ريب - أن وجه المسألة يتغير لو كان الشرق الذي يواجهك به غير الصين واليابان والهند وأندونيسيا. أي لو كان هناك قسم ثالث للدنيا يمثل الشرق العربي والغرب العربي ومصر بينهما حلقة الاتصال.

ثم يزداد وجه المسألة تغيراً لو كانت الدنيا أكثر أقساماً حسب عقلياتها المختلفة - وهو الواقع - فكانت أوروبا وأمريكا تنقسمان بحسب العقلية الديمقراطية والعقلية الدكتاتورية - وبينهما خلاف أساسي لا شك فيه - وكان الشرق ينقسم بحسب أجناسه وهي كثيرة، وحسب طبيعة بلاده وهي متغايرة.. إلى آخر الأقسام التي لا بد أن يظن إليها ويدقق في تمحيصها من يريد وضع مناهج الثقافة حسب العقليات.

■ وعلام يبني الدكتور نظريته في أن مصر أمة غربية؟

إنه يبنيها على حقيقة معروفة تاريخياً، وهي أن العقل اليوناني اختلط بالعقل المصري وأثر الواحد منهما في الآخر طوال عشرة قرون فلنسمعه يقول:

«التلاميذ يتعلمون في المدارس أن مصر عرفت اليونان منذ عهد بعيد جداً وأن المستعمرات اليونانية قد أقرها الفراعنة في مصر قبل الألف الأول قبل المسيح».

«والتلاميذ يتعلمون في المدارس أيضاً أن أمة شرقية بعيدة عن مصر بعض الشيء، قد أغارت عليها، وأزالت سلطانها في آخر القرن السادس قبل المسيح وهي الأمة الفارسية، فلم تدعن مصر لهذا السلطان الشرقي إلا كارهة، وظلت تقاومه أشد المقاومة وأعنفها، مستعينة على ذلك بمتطوعة اليونان حيناً، وبمخالفة المدن اليونانية حيناً آخر، حتى كان عصر الإسكندر⁽¹⁾. وبالتأمل في الجمل التي وضعنا تحتها خطأ، نجد الدكتور لا يخامر الشك في أن المصريين أباحوا المستعمرات اليونانية في مصر لتوافق العقلين المصري واليوناني وحده. وأنهم قاوموا الفرس للاختلاف العقلي وحده كذلك، وأنهم لهذا استعانوا بمتطوعة اليونان وبمخالفة المدن اليونانية.

ولا يريد الدكتور أن يفرض أن النزاع السياسي والوفاق السياسي لا يعنيان دائماً نزاع العقليات ووفاقها. لا في القديم ولا في الحديث، وأنه إذا صح - إلى حد كبير - أنه كان هناك

(1) هذا التأكيد للأستاذ سيد قطب... وما عداه - من التأكيدات - فهي لنا.

اتصال بين العقلية المصرية والعقلية اليونانية، وكان هناك افتراق بين العقلين المصري والفارسي، فليست الأمثلة التي ذكرها هي التي تثبت هذا أو ذلك.

وأمامنا الآن فيما يثور من المشاكل السياسية ما ينفي مثل هذا المنطق، فاليابان والصين في حرب طاحنة، وهما فريق واحد في رأي الدكتور، وإيطاليا تعادي فرنسا وهما أمتان لاتينيتان - فوق أنهما أوربيتان من فريق عقلي واحد في رأيه كذلك.

وما رأي الدكتور لو قلنا له: إن هذه المستعمرات اليونانية لم تكن مرضية من المصريين وإنما كان يسمح بها بعض الفراغة المكروهين من الشعب للجنود اليونانية المرتزقة، لتحميمهم هم من غضب الشعب؟ وإنما المصريون كانوا ينتقمون على هؤلاء الفراغة تقريدهم للإغريق ويأنفون من الاختلاط بالمرتزقة، ويصفونهم بأقبح الصفات؟ وما رأيه كذلك لو قلنا له: إن بعض الإغريق كانوا في جيش فارس كما كانوا في جيش مصر سواء بسواء؟ بل إذا قلنا له: إنه لم يمهد لاحتلال مصر كما مهدت لها خيانة «فانيس اليوناني» الذي أطلع ملك الفرس على بعض أسرار الهجوم وقدم الرشوة لعرب الصحراء، وأرشد الملك إلى رفع بعض الحيوان الذي يقدره المصريون على دروع الجنود؟

وما رأيه لو كانت قد حدثت عدة وقائع صغيرة بين الجنود المصريين، والجنود اليونانيين، وبين مصر وبعض المدن الإغريقية، كبرقة التي كانت تابعة للإغريق في عهد «وهاب رع»؟

ومع كل هذا لنفرض أن المصريين رضوا بمستعمرات يوتانية في مصر، وثاروا على استعمار فارس. أفلا يرى الدكتور أن القياس مع الفارق - كما يقولون - وأن مصر قد تصبر على مستعمرات صغيرة لها فيها مصلحة سياسية وهي سيدة نفسها متبرعة بهذه المستعمرات، ولكنها لا تصبر على استعمار كامل يفقدها سياستها العامة وسيادتها الكاملة؛ وأن هذا وذلك لا يدلان على توافق عقل ولا اختلاف، لأنه يقع في كلتا الحالتين على السواء؟ أولا يرى أن الحروب قديما وحديثا لا تثبت النزاع العقلي ولا تنفيه، وأن الثورات على المستعمرين لا ينظر فيها إلا إلى الحرية والسيادة قبل كل اتفاق عقلي أو اختلاف؟ وإلا فقيم كانت ثورة مصر على الحملة الفرنسية؟ وقيم كانت ثورتها على الاحتلال الإنجليزي في العصر الحديث؟ أكانتا للاختلاف العقلي، كما ثارت على فارس، أم هي الحرية تحركها في كل حين؟

وقد صبرت مصر على الاستعمار التركي⁽¹⁾ أطول مما صبرت على الاستعمارين الفرنسي والإنجليزي، بل لقد كانت في بعض عهودها تحتمي به من الإنجليز، فهل هذا دليل اتفاق عقلي بين المصريين والأتراك؟ الواقع غير هذا عندنا وعند الدكتور.

وبشاء الدكتور أن يمضي بعد هذا في نفي الوحدة العقلية بين مصر والأمم الشرقية حتى التي تتكلم العربية وتدين

(1) كان مألوقا من سيد قطب وجمهرة من منقفي ذلك التاريخ وصف الحكم التركي لنصر بالاستعمار - وهو وصف راجعه سيد قطب في مرحلة التزامه - قيما بعد - بالرابطة الإسلامية والجامعة الإسلامية والجنسية الإسلامية التي غيرت عنها الخلافة العثمانية، كدولة إسلامية جامعة.

بالإسلام، فيذكر أن الدين واللغة لا يخلقان وحدة وأن المسلمين منذ أقدم عصورهم فطنوا إلى هذا بدليل أن الدولة الأموية في الأندلس كانت تخاضع الدولة العباسية في العراق.

ولا شك أن الوحدة السياسية هي التي يبرهن عليها هذا المثال، وبديهي أن الوحدة العقلية هي التي نعنيها ويعنيها الدكتور في بحثه، وهي غير الوحدة السياسية بلا جدال. والافتقار كانت الأندلس والعراق على ما بينهما من نفور، تعيشان بعقلية واحدة أو بعقليتين متقاربتين. يظهر ذلك في نتائجهما الأدبية والعلمية، بل يبدو في أن أدب الأندلس تأثر بأدب المشرق تأثراً ظاهراً - على الأقل في بعض صورده - فلم ينتفع بالبيئة الجديدة إلا انتفاعاً محدوداً، في الشكل أكثر منه في الموضوع. والدكتور طه بك عميد كلية الآداب سيد العارفين بهذه الحقيقة الأدبية التاريخية.

ولكنه يمرق من هذه في رشاقة وخفة إلى نتيجة قاطعة هي: أن من السخف الذي ليس بعده سخف اعتبار مصر جزءاً من الشرق، واعتبار العقلية المصرية عقلية شرقية. كعقلية الهند والصين..!

ولست أدري من هو الذي اعتبر عقلية مصر كعقلية الهند والصين؟ ولكني أدري أن مخالفتي الدكتور يعتبرونها عقلية شرقية كعقلية مصر ذاتها..! ويرون لهذه العقلية المصرية خصائص تميزها عن العقلية الأوربية. كما تميزها عن عقلية الشرق الأقصى سواء بسواء.

■ وفيه هذا التعميم؟

ومتى كان لأوربا عقل واحد؟ وللشرق الأقصى أو الأدنى عقل واحد كذلك؟ ولم لا نقول: إن لكل أمة عقلاً خاصاً يتطلب ثقافة خاصة، وإن هذه العقول قد تتقارب وتتباعد ولكنها لا تتحد أبداً. وإلا فما بال البرنامج الدراسي الإنجليزي يمتاز بالتخفيف والتربية الرياضية عن البرنامج الفرنسي، ويتوسط البرنامج الألماني بينهما؟ - وهذه أقل مظاهر الاختلاف - وما بال الأدب الإنجليزي غير الأدب الفرنسي والأمريكي مع أن هذا مكتوب باللغة الإنجليزية! وما بال الفن الروسي غير هؤلاء جميعاً في القديم والحديث؟

بل ما بال إيطاليا وألمانيا الأوربيتين تنحوان منحى الدكتاتورية فتتبعهما فيها اليابان في أقصى الشرق، وتلتزم إنجلترا وفرنسا الأوربيتان أيضاً الديمقراطية على اختلاف فيها وتؤمن بها معهما أمريكا، وهي أقرب في الواقع واحتكاك المصالح إلى اليابان منهما، والديمقراطية والدكتاتورية اتجاهان عقليان متقابلان، وكفي لتقابلهما أن «الدولة للفرد» في الأولى و«الفرد للدولة» في الثانية، ويتبع هذا الوضع كل برامج التعليم وكل مناهج الثقافة، وكل الشرائع والقوانين؟

ثم ما بال العقلية الرومانية قديماً كانت تخالف العقلية اليونانية وهما متجاورتان ومن حوض البحر الأبيض المتوسط الذي يفترض له الدكتور عقلية متحدة؟

ثم ما بال الأساطير اليونانية والأساطير المصرية تكادان لا تلتقيان إلا في مشابه قليلة؟ وما بال القصة تنبت وتتعرع بل تزدهر في بلاد الإغريق، ثم لا تكون في مصر القديمة إلا أقصوصة سانجة؟.. وما بال.. وما بال. وما بال مع طول اتصال الأمتين كما يقرر التاريخ ويقرر الدكتور؟

أليس في هذا كله ما يبرهن على أن التعميم في النظم العقلية لا يؤدي إلى نتائج مضبوطة. يمكن أن تبنى عليها توجيهات حاسمة في الثقافة العامة؟

* * *

الإسلام والمسيحية وأثرهما في أمم البحر الأبيض

ويستطرد الدكتور في هذا الحديث، ويخشى أن يكون الإسلام - وهو قادم من صحراء العرب، وهي ليست من حوض البحر الأبيض المتوسط، ولم يظلمها العقل اليوناني - قد غير عقلية المصريين «التي هي عقلية يونانية، وقد مرت مناقشة هذا الرأي» فينتهي من هذا الاستطراد إلى نتائج فيها بعض الحق ولكن فيها كثيراً من القفزات.

فهو يقول لك: إن الإسلام لم يغير هذه العقلية، لأنه اختلط بالفلسفة اليونانية، فأصبح بهذا الاختلاط عنصراً موافقاً للعناصر المكونة لهذه العقلية لا مضاداً لها؛ ولأن الإسلام شأنه شأن المسيحية: والمسيحية لم تغير العقلية الأوربية حينما عبرت إليها، فما بال الإسلام يغير المسيحية في هذه الخلطة. مع أن القرآن جاء مصدقاً للإنجيل؟

■ فلنناقش هذين الدليلين:

- فأما أن الفلسفة اليونانية امتدت إلى الإسلام فهذا ما لا شك فيه؛ ولكن من قال: إن الأديان تطبع الشعوب بفلسفتها وقضاياها المنطقية؛ إنما المؤثر الأول للأديان هو نظامها الروحي. وهو تبشيرها واثارها. وهو الصورة الغامضة التي تنطبع في نفوس أتباعها؛ ثم هو بعد هذا قوانينها ونظمها

الاجتماعية والاقتصادية والسياسية إن كان فيها « كما في التوراة والقرآن » مثل هذه النظم.

وما أظن الدكتور يقول: إن شيئاً من هذا كله في الإسلام يتفق مع الفلسفة اليونانية؛ فالخاصة وحدهم تأثروا بهذه الفلسفة. أما الشعب المصري فقد أثر فيه الإسلام بخواصه تلك، وطبعه بطابعها. بل أثر فيه بروحه العربية الخالصة والروح العربية من أقوى الأرواح في أمم العالم « كما يقرر ذلك الدكتور نفسه في إحدى محاضراته الأخيرة من محطة لندن اللاسلكية ».

ولم تعد الفلسفة اليونانية مدينة الإسكندرية إلا في أحيان قليلة. وظلت « منف » محتفظة بفرعونيتها. حتى جاء الرومان فكرهتهم وأعرضت عنهم ما وسعها الإعراض، ثم جاء الإسلام فاعتنفته راضية. وتأثرت به مع سائر البلاد.

— وأما أن المسيحية لم تؤثر في طبيعة العقل الأوربي. فوجب أن يكون الإسلام كذلك، لأن القرآن مصدق للإنجيل. ففي هذا القياس توسع فضفاض في تفسير هذا التصديق.

فالواقع أن الأديان قد تتفق في ناحية أو نواح، ولكنها تختلف من حيث طبيعة عقليتها في نواح. وكل دارس للقرآن وللإنجيل يدرك هذه الفروق: يدركها في طبيعة الإله كما يصورها القرآن وطبيعته كما يصورها الإنجيل، وفي العلاقة بين الإله والنبي وقومه — [في] —⁽¹⁾ الأول، وبينه وبين النبي وقومه في الثاني. وهذه وتلك من أهم أسس الأديان.

(1) ليست في الأصل.

وإذا جاز لنا أن نَعْقِدَ صلةً بين شخصية النبي والدين الذي يجيء به - أو على الأقل أثر هذه الشخصية في التعاليم التي يتركها النبي لقومه غير الكتاب المنزَّل، من الأحاديث والسنن، فلا بد أن نحسب حساباً للاختلاف الأصيل الواضح بين شخصية «محمد» الرجل العربي الذي يجمع بين الروحانية الرقيقة الشاعرة، والرجولة القوية الصارمة، والمزاج العملي المعتدل، وشخصية «عيسى» الوديعه السمحة التي لا تتجلى فيها إلا الروحانية الشفيفة.

على أن هناك فارقاً أساسياً بين الإنجيل والقرآن: بل بين الإنجيل في ناحية، والتوراة والقرآن في ناحية، فهذان يحويان بعد اللاهوت نظماً وشرائع وحدوداً دينية واجتماعية واقتصادية وسياسية، بينما الإنجيل يكاد يخلو من هذا كله.

«والمسيح عليه السلام إنما جاء داعية للصفاء الروحي والرحمة واللين والتسامح والعفة والزهد، ولكنه لم يشر إلا إشارات عارضة، للنظم الاجتماعية أو الاقتصادية أو السياسية، بل كان يلمح من تصرفاته وتصريحاته أنه لا يستريح إلى القيود والتقاليد من الكهان اللاويين والكتبة، لأنها أعمال ظاهرية، وهو كان موكلاً بالبواطن وبالأرواح.. فقد أباح لتلاميذه سبت بني إسرائيل، وأحل كل ما يدخل إلى الفم لأنه لا ينجس، أما الذي يخرج منه «غش. زور. فسق.. فهو الذي ينجس، وأباح للتلاميذ الإفطار في أيام الصوم اليهودية؛ ولم يرمج الزانية التي جيء له بها معترفة، لأن الذين سيتولون رجمها - حسب شريعة موسى -

ليس فيهم من هو حال من الدب: ومن أقواله: سمعتم أنه قيل
عين بعين وسن بسن، وأما أنا فأقول لكم: لا تقاوموا الشر، بل من
لطمك على خدك الأيمن فحول له الآخر أيضاً، ومن أراد أن
يخاصمك ويأخذ ثوبك، فاترك له الرداء أيضاً، ومن سخرك ميلاً
واحداً فاهب معه اثنين...»⁽¹⁾

وكل ما نستطيع الوقوف عليه من شرائع المسيح يتلخص في
قوله:

«وقد سمعتم أنه قيل للقديس لا تقتل. ومن قتل يكون
مستوجب الحكم؛ وأما أنا فأقول لكم: إن كل من يغضب على أخيه
باطلاً يكون مستوجب الحكم، ومن قال لأخيه «رقاً» يكون
مستوجب المجمع. ومن قال: يا أحمق يكون مستوجب نار جهنم.
فإن قدمت قربانك إلى المذبح وهناك تذكرت أن لأخيك شيئاً
عليك فاترك هناك قربانك قدام المذبح واهب أولاً اصطلاح مع
أخيك. وحينئذ تعال وقدم قربانك. كن مرضياً لخصمك سريعاً
ما دمت معه في الطريق، لئلا يسلمك الخصم إلى القاضي ويسلمك
القاضي إلى الشرطي فتلقى في السجن، الحق أقول لك لا تخرج
من هناك حتى توفي الفليس الأخير.

قد سمعتم أنه قيل للقديس لا تزني.. وأما أنا فأقول لكم إن كل
من ينظر إلى امرأة ليشتتها فقد زنى بها في قلبه. فإن كانت
عينك اليمنى تعثر فقلعها وألقها عنك لأنه خير لك أن يهلك

(1) إنجيل متى الإصحاح الخامس الآيات 38، 39، 40، 41.

أحد أعضائك ولا يلقى جسدك في جهنم. وإن كانت يدك اليمنى تعثرُك فاقطعها وألقها عنك. لأنه خير لك أن يهلك أحد أعضائك ولا يلقى جسدك كله في جهنم».

وقيل: مَنْ طَلَّقَ امْرَأَتَهُ فَلْيُعْطِهَا كِتَابَ طَلَاقٍ، وَأَمَّا أَنَا فَأَقُولُ: إِنَّ مَنْ طَلَّقَ امْرَأَتَهُ إِلَّا لَعَلَّةَ الزَّوْنِ يَجْعَلُهَا تَزْنِي، وَمَنْ يَتَزَوَّجُ مَطْلُوقَةً فَإِنَّهُ يَزْنِي. أَيْضًا سَمِعْتُمْ أَنَّهُ قِيلَ لِلْقَدَمَاءِ لَا تَحْنُثْ بَلْ أَوْفِ لِلرَّبِّ أَقْسَامَكَ.. وَأَمَّا أَنَا فَأَقُولُ لَكُمْ لَا تَحْلِفُوا لَا بِالسَّمَاءِ لِأَنَّهَا كُرْسِيُ اللَّهِ، وَلَا بِالْأَرْضِ لِأَنَّهَا مَوْطِنُ قَدَمِيهِ، وَلَا بِأُورُشَلِيمَ لِأَنَّهَا مَدِينَةُ الْمَلِكِ الْعَظِيمِ.. وَلَا تَحْلِفْ بِرَأْسِكَ لِأَنَّكَ لَا تَقْدِرُ أَنْ تَجْعَلَ شَعْرَةَ وَاحِدَةٍ بَيْضَاءَ أَوْ سُودَاءَ. بَلْ يَكُنْ كَلَامُكُمْ نَعَمَ نَعَمَ لَا لَا. وَمَا زَادَ عَلَيَّ ذَلِكَ قَهْوٌ مِنَ الشَّرِيرِ»⁽¹⁾.

وحتى هذه التشريعات على قلبها، إنما تتوجه للتطهر الخلقي أكثر مما ترمي إلى حد الحدود وسن القوانين وبيان الفروض.

فالمسيحية حينما امتدت إلى أوروبا وصلت إليها نظاما روحياً وإرشاداً خلقياً، ولكنها لم تضع لها أسساً للتشريع والاقتصاد والسياسة كما وضع القرآن. حينئذ بقي العقل الأوربي يسيطر على الحياة الدنيوية ويشرع لها ويتصرف فيها. فلم يتغير منه شيء هام مع المسيحية، أما القرآن فقد وضع العقل النصري والعقول التي خضعت له في نطاق معين، هو نطاق التشريع القرآني والنظام الدنيوي القرآني.

(1) إنجيل متى الإصحاح الخامس الآيات 31-37.

ومن هنا كان لا بد أن يؤثر في هذا العقل ما لا يؤثر الإنجيل. وأن يبقى دائم الأثر حتى تتحلل منه الدولة بالتشريع الروماني والقوانين الفرنسية منذ نصف قرن وهو - مع هذا - لا يزال شديد الأثر في عقلية التشريع المصري.

ولو أن التوراة هي التي عبرت إلى أوروبا بدل الإنجيل، لكان لها - ولا شك - أثر أكبر في تغيير طبيعة عقلها العملية الواقعية. أكثر مما أثر الإنجيل لأن فيها تشريعاً وحدوداً ونظاماً اقتصادياً، لا يوجد في الإنجيل.

ومع هذا فالدكتور لا يقنع بأن اختلاط الإسلام بالفلسفة اليونانية - قد كف أثره في عقلية المصريين إلى درجة تجعلها تظل قريبة من عقلية أوروبا. بل لا بد أن يؤدي هذا الاختلاط إلى أن «يلغي ما يمكن أن يكون من الفروق بين الأمم التي تعيش في شرق بحر الروم والأمم التي تعيش في غرب هذا البحر نفسه ثم يؤكد هذا بقوله: «ليس بين الشعوب التي نشأت حول بحر الروم وتأثرت به فرق عقلي أو ثقافي ما».

وما أظن أن وجود صلوات - باللغة ما بلغت بين العقليات المختلفة - يمكن أن يلغي كل الفروق، بحيث لا يكون هناك «فرق ما» وأحسب أن الدكتور بعد أن يطلع على ما قدمت سيخفف من هذه التوكيدات، ويظامن من هذا الجزم الشديد.

وفي أثناء حماسة الدكتور لرأيه يقدم لمخالفه مادة جديدة من البراهين، فهو يقول بعد جملة السالفة التي اقتبسناها: «إنما

هي ظروف السياسة والاقتصاد تدل من أهل هذا الساحل لأهل ذلك الساحل».

وما من شك أن للظروف السياسية والاقتصادية آثاراً في العقلية العامة. وأنا لا أريد أن أذهب مع «كارل ماركس» إلى نظرية «التفسير الاقتصادي للتاريخ» ولكني لا أغفل الاعتراف بآثر السياسة والاقتصاد في عقليات الأمم، فإذا أضفنا إلى ذلك طبيعة بلادنا وطبيعة البلاد الأوربية كان لابد من الاختلاف العقلي.

وأدنى مراتب هذا الاختلاف، أن الطبيعة في أوروبا قاسية شحيحة بالقياس إلى الطبيعة المصرية الوديعه الكريمة. فالطبيعة هناك تخزي أهلها وتنبههم في كل لحظة إلى العمل المتواصل، وقسوتها وشحها يوحيان إليهم أن يدخروا من أيام الرخاء لأيام الإعسار. وأن يكونوا على أهبة في كل وقت لمقاومة الطبيعة الطاغية. ولا يقتصر الادخار على الماديات. فإن توالي الأجيال في هذه البيئة يمدّها بأعصاب يختزن فيها قدر من الطاقة الضرورية للتحمل والمقاومة، وضبط النفس والوقوف للصدمة على تفاوت في الأجناس والبيئات. بينما الطبيعة الهينة اللينة في مصر، لا تدع المصري يدخر من الطاقة شيئاً لأنه قادر على لقاء الطبيعة كل آن بقوته الحاضرة، بلا تحفظ ولا ادخار. ومن هنا يسرف المصري في قوته وصحته وماله، لأن الطبيعة لم تعود أن يحتاج لادخار شيء من القوة أو القوت: البرد محتمل، والحر محتمل، والنهر أليف وديع، وفي لأهله في كل

عام، والأرض خصبة غنية الظاهر، ناجنه اليفه الباطن، لا زلزلة ولا بركان، ولا جذب ولا حرمان.

الرجل المصري القوي، ترى قوته هائجة كلها في عضلاته الظاهرة، والرجل الإنجليزي القوي ترى هذه القوة كامنة في ملامحه وأعصابه: الأول كالجندي يحمل سلاحه وذخيرته كلها بيده، وليس له رصيد مخزون، والثاني أعزل، ولكنه مطمئن إلى أن وراءه مخزوناً كاملاً للسلاح والذخيرة، يأخذ منه عند اللزوم.

المرأة المصرية الجميلة تطالع العين منها كل معاني جمالها صريحة واضحة، وتفرغ لديك كل نخرها الروحي والعقلي في جلسة واحدة أو عدة جلسات، والمرأة الأوربية الجميلة، قد لا تبهر العين بالحسن، ولكن جمالها كالنبع الذي يعطيك نفسه رشفة رشفة، ثم يزيدك في كل جلسة جديداً لم يكن في الحسبان.

هذه ناحية واحدة من نواحي الاختلاف بين الطبيعة المصرية والطبيعة الأوربية، تكفي وحدها للتفريق بين مناهج الثقافة، ووراءها كثير غيرها، يتفرع عنها وينظر إليها، ويؤكد ضرورة التفرقة - إلى حد ما - بين مناهجنا ومناهجهم في كل أنواع التعليم، أو على الأقل في التعليم النظري إذ كانت العلوم التطبيقية ملك الجميع.

* * *

مصر والحضارة الأوربية الحديثة

ويستطرد الدكتور من العصور القديمة إلى العصور الحديثة، فيرى مصر تأخذ بالحضارة الأوربية الحديثة، وحينئذ يجد نفسه قد وفق إلى برهان جديد لا ينقض على أن عقلية مصر عقلية أوربية بدليل أخذها بهذه الحضارة، وإنما كان الحكم التركي هو الذي قعد بها عن متابعة أوربا في نهضتها خمسة قرون.

حسن! ولكن ألا يمكن أن يكون لأخذ مصر بحضارة أوربا في العصر الحديث سبب آخر غير توافق العقليتين؟ وما شأن تركيا إذن وهي التي كانت كما يقول الدكتور هي المانعة لمصر من الأخذ بهذه الحضارة، بينما هي اليوم مشتطة في الأخذ بها، بل ما بال اليابان وهي تأخذ بالحضارة الأوربية في قوة وسرعة؟ أهذا دليل أيضاً لا ينقض على أن عقلية اليابان عقلية غربية في القديم والحديث. وهي التي كانت منذ عشرين صفحة في الكتاب فقط تمثل القسم الثاني من أقسام العقليات الإنسانية؟

أفلا يمكن أن نقول في سهولة ويسر، وبلا تعسف أو شطط: إن الأخذ بالحضارة الأوربية ضرورة زمنية لا بد منها، نتيجة أن أوربا سبقتنا في مدارج الرقي، كما أخذت هي بحضارتنا يوم سبقناها في مدارج الرقي، وأن مدنية العالم دواليك، تأخذ هذه من تلك على حسب الظروف. وأن أمم الشرق لهذا السبب تأخذ اليوم بحضارة الغرب على اختلاف عقلياتها، كاليابان والصين نفسها في أقصى الشرق، وإيران وتركيا في وسطه، وسوريا ومصر في أدناه؟

ولكن الدكتور تشدد به الحماسة، فبرئني ثوب الخطيب وروح
يبرهن لنا عن تاصل الروح الأوروبية فينا، وضعف الروح
الشرقية، بأن أشد المحافظين فينا اليوم، لن يرضوا بالتخلي عن
الحضارة الجديدة. ولن يقبلوا الرجوع إلى العصور الشرقية الأولى
في مأكّل أو مشرب أو عدة حرب، وهذا دليل أي دليل على أن
المصريين لم يكونوا يوماً ما شرقيين!

وأخشى ما أخشاه إن نحن ذهبنا مع استدلال الدكتور إلى
نهايته أن نحكم بأن الأوربيين اليوم ليسوا أوربييناً
أليس أهل أوربا اليوم لا يرضون أن يعيشوا عيشة الأوربيين
السالفين منذ قرن واحد من الزمان؟

أليس نفورهم هذا كنفور المصريين من حياة الشرقيين القدامى؟
أليس هذا دليلاً على أن المصريين ليسوا شرقيين؟
أليس ذلك دليلاً على أن الأوربيين ليسوا أوربيين؟
■ أو ما رأي الدكتور؟!

وبعد فلا بد أن نقرر أن في اضطرابنا اليوم بين الحضارة
المادية الأوروبية التي نأخذ بها، وبين عقائدنا وتقاليدينا
وضمائرنا - والدكتور يعترف بهذا الاضطراب ويصور ما يحدثه
في النفوس من قلق، ويدعو دعوته لإزالته - هذا الاضطراب ذاته
بين الحياة الخارجية التي نهيم فيها، والحياة الداخلية المستكنة
في عقولنا وأرواحنا، أكبر دليل على أن عقلية المصريين غير
عقلية الأوربيين، وعلى أن هذه الحضارة لا تجد سبيلها ميسرة

في نفوسنا، فتصطدم بها وتثير كامنها، وأنه لا بد من مضي زمن طويل قبل أن تطمئن هذه الحيرة، ويسكن ذلك القلق، وتسيغ هذه الحضارة كما أساغها الغربيون.

هذه الحضارة التي يقول عنها كاتب أمريكي: إنها في نزاع واضطراب مع الإنسانية لأن المخترعات وآثارها - وهي من عمل العقل الواعي - قد سبقت العقل الباطن لأوروبا نفسها، وأوجدت بيئة شديدة الجدة على الإنسانية، والإنسان لا يستريح ويهدأ إلا حين تتوازن نفسه الباطنة مع ما يحيط بها من الحياة الظاهرة وتترج تدرجاً طبيعياً. وهو رأي له قيمته في تقدير هذه الحضارة: لأنه يقوم على نظرية علمية تكاد تصبح مذهباً قانماً.

وليس معنى وجود اختلاف بين العقلية المصرية والعقلية الأوروبية، أنه حتم أن يكون عقلنا ضعيفاً وعقل الأوربيين قوياً، وأنه لا بد لننجد بأنفسنا من هذه الوصمة أن نندمج في أوروبا اندماجاً، كما يريد الدكتور أن يرتب المقدمات والنتائج: ليخيفنا من هذه النتائج، فالقويان يختلفان في أكثر الأحيان، وقلما يختلف الضعيف والقوي في شأن من الشؤون!

وأيسر ما يحقق رغبة الدكتور في الأخذ بالحضارة الأوروبية، ويحقق رغبتنا في الإبقاء على مميزاتنا الذاتية، أن نحلل هذه الحضارة إلى عنصرين: الثقافة والمدنية. ونأخذ كلا منهما بأخر تعريف وضعه لهما العلماء: فنعتبر الثقافة شاملة لديننا، وفنوننا، ونظمنا الخلقية، وتقاليدنا، وخرافاتنا كذلك.

وهذه يجب أن نحفظ فيها بماضينا، وتجدد فيها بمقدار ما تتطلب سنة التطور الطبيعي، ونعتبر المدنية شاملة للعلوم والفنون التطبيقية. وتلك نأخذها من أوروبا أخذًا.

وأنا أدرك أن هذه التفرقة ليست سهلة، وإنما تحتاج إلى مجهود عنيف للاحتفاظ بالتوازن، وإلى تركيز خلقي واجتماعي لم نصل بعد إليه. ولكن هذا هو ما صنعه اليابان التي يضربها الدكتور لنا مثلًا أعلى، فما تزال «الثقافة اليابانية باقية على أصولها» في الوقت الذي أخذت بأخر مثل المدنية الأوروبية وزادت فيها. وما العقيدة التي تدفع إلى الانتحار من أجل الإمبراطور إلا شاهدًا على بقاء اليابان سليمة من كل مزاج أوربي.

ولحسن الحظ أن الدكتور طه، لم يكدر يفرغ من كتابه الذي نحن بصدده، ويقرر فيه ضرورة الأخذ بالحضارة الأوربية خيرها وشرها، حتى كتب في عدد الثقافة التاسع في تعليق له على كتاب «سندباد عصري» يقول: «الذوق العام يختلف باختلاف البيئات، فهناك أشياء يقبلها الذوق العام الأوربي، وينبو عنها الذوق العام المصري، وليس على مصر من ذلك بأس، فليس من الضروري أن نُشبه الأوربيين في كل شيء، ولا أن نقلدهم في كل شيء..» وهذا حسبنا من الدكتور!

أما العزة الأوربية التي يحبها إينا، ويشوقنا إلى الاستمتاع بمثلها حين نصبح قطعة من أوربا، فهي دعوة كريمة نبيلة، ولكن ليست تقاليد الغرب وحدها هي التي تؤدي إليها، فقد عزت اليابان ولا تزال لها مميزاتها الأصلية، وقد كانت للعرب عزة قومية، وهم على أخلاقهم الأولى، التي لم تكن أوربية يونانية!

روحانية الشرق ومادية الغرب

وفي حلق ظاهر راح الدكتور يتهم ويستهزئ بمن يحاولون إثبات روحانية الشرق، ومادية الغرب، وفسر الروحانية والمادية تفسيراً يخرج منه بما يؤيد هذا الاستهزاء وذلك التهمك في ست صفحات طوال، وكان بارعاً في سوق الأمثلة إلى حيث يريد.

وهذه مسألة قد كفانا الأستاذ الفاضل «أحمد أمين» - صديق الدكتور وزميله - متونة الكلام فيها، فبين في هدوء رزين، ماذا يقصد بالمادية والروحانية، وذلك في العدد الثاني من مجلة الثقافة، بياناً نستريح إليه كل الراحة، حيث قال:

«هناك معنى آخر قد يكون أقرب إلى الصواب. وهو أن معنى المادية تفسير ظواهر هذا العالم على أساس المادة من غير التفات إلى عالم آخر روحي وراء هذا العالم وبناء كل وسائل الحياة وكل ظواهر المدنية والحضارة والثقافة على أساس المادة وحدها».

«فليس العقل إلا شكلاً من أشكال المادة الدائمة التغيير والتنوع. وليست أفعال الإنسان مهما دقت إلا نتيجة لمواد الجسم. وليست كل الظواهر النفسية من فكر وإرادة وعاطفة إلا نتيجة للمخ المادي من حيث عمله وحجمه وتركيبه. إلخ».

«أما الروحانية فتري أن المادة وحدها عاجزة عن أن تشرح كل ما يحدث في العالم بل لا يفسرها إلا القول بوجود شيء غير

مادي شيء روحاني وراء هذا الشيء المادي. فالفكر وظواهر
العقل ليست نتيجة المخ المادي.

نعم إن المخ آلة التفكير ولكن يستحيل أن يكون الفكر الإنساني
الذي يشعر بشخصيته وبحرية إرادته نتيجة لمادة لا تحس
ولا تشعر. مهما كانت حالتها من رقي تركيبها وحسن نظامها.

« فالإيمان بعالم روحاني بجانب العالم المادي من نفس واله
وعالم آخر. هو أوضح خصائص الروحانية، وهذا النوع من النظر
هو الذي يسود الشرق، فهو يؤمن بالإنهام الذي لا يعقل. كما
يؤمن بالمنطق الذي يعقل. على حين أن النزعة المادية لا تؤمن
إلا بسبب ومسبب، وعلّة ومعلول، ومقدمة ونتيجة.»

وهذا البيان الهادئ الواضح فيه الكفاية للدلالة على الفرق
بين طبيعتي الشرق والغرب في تصور الأشياء.

ويمكن أن يضاف إليه من الأمثلة بعض ما تؤدي إليه النظرة
المادية في الغرب من بعض النظريات العلمية والفلسفية المتعلقة
بالله، لبيان الفرق الهائل بين تصور الفلسفة الشرقية وتصور
الفلسفة الغربية في أطوارها الأخيرة لموجد الوجود.

فأما النظرة الشرقية فلا حاجة إلى الإفاضة فيها لأنها
معلومة، وأما النظرة الغربية، أو أحدث النظريات الغربية فتمثلها
«النظرة الزمنية لله» والتي تقول:

«عند النقد والتأمل الدقيقين نستطيع أن نلمح في تتابع
الصفات الحيوية الذي وقع بالفعل في التاريخ نظاماً عاماً يطبع

هذا التتابع بطابع مميز له عن أي تتابع آخر، هذا النظام هو ما نعبر عنه بلفظة «رقي» أو «تقدم»، وقاعدة هذا الرقي هي الانتقال العام من البسيط إلى المركب، ومن العام إلى الخاص، ومن الوحدة والانفراد إلى الاتحاد والائتلاف. أي أن الكون بسننه وتركيبه، سمح ببزوغ سلسلة من الصفات الحيوية تتسق جميعاً في قاعدة عامة هي هذه القاعدة التقدمية، فعندما بزغ وعي الإنسان أو حبه أو عاطفته أو اجتماعيته، لم تبرز هذه جميعاً في عالم معاكس معارٍ لها ولقيامها، بل نشأت في محيط شديد العطف عليها متين الصداقة لها، أو بالأحرى أنها نشأت لأن الكون أراد لها النشوء..

ونخلص من هذا إلى تصريحين هامين: أولاً: أن الحياة وليدة الكون، ثانياً: أن الرقي في الحياة وليد الكون كذلك.

والله في هذا التصور يصبح: ذلك التركيب في صلب الكون الذي سمح بالحياة وبالرقي فيها. إن الحياة حقيقة واقعية، والرقي فيها حقيقة واقعية كذلك، من أجل هذا وجب وجود تركيب خاص للكون يسمح بوقوع هاتين الحقيقتين. هذا التركيب هو الله..

ألسنت تشاهد الحياة في نفسك وفي سواك؟ أليست تلوح لك وهي منتظمة في سلسلة تقدمية متواصلة، من نقيق الضفادع إلى موسيقى تتهوون؟. كيف أمكن حدوث هاتين الظاهرتين، الحياة ورقيها؟. لا بد أنه توفر في الكون تركيب خاص شد أزرها، ولم يكتف بأن جعل من وقوعها أمراً ممكنًا، بل أحدث هذا الوقوع

فعلاً، هذا التركيب في هذه الخاصة الكونية، هذا الجانب من أجزاء الكون وحركاته.. هو الله»⁽¹⁾.

هذه إحدى النظريات عن «الله» كما يصل إليها العلم الطبيعي الحديث معتمداً على مذهب النشوتيين⁽²⁾.

وليس هنا مجال مناقشة هذه النظرية، ولكنني أعرضها مقابلة للنظريات الشرقية، التي قد تفسر معها في [خطواتها]⁽³⁾ الأولى، ولكنها لا تسمح أن يكون «الله» إحدى خواص الكون، أو جزءاً من الكون، لأنها تفرض الله أكبر من الكون ومغايراً له.

وقريب من هذه النظرية نظرية: «الله، المادة، الزمن» والتي تصل في نهايتها إلى أن الله هو نتيجة التفاعلات العليا بين المادة والزمن، وهي نظرية رياضية، تصل إلى ما يشبه النظرية الطبيعية السالفة.

وليس ما وراء هذا ما هو أوضح من بيان الافتراق بين الطبيعتين:

فمصر على هذا من أيتهما في نظر الدكتور قديماً وحديثاً؟ قبل الإسلام وبعده على السواء؟.

* * *

(1) تليخيص الأستاذ شارل مالك عن ألكسندر ومورو عن هوبتهن ووبمان، مقتطف - أكتوبر 1932م.

(2) أي الفائلين بالنشوء والارتقاء الطبيعيين، من أتباع «داروين» [1882-1809] صاحب كتاب [أصل الأنواع]

(3) في الأصل، في خطورتها.

الدولة والتعليم العام

والى هنا تنتهي تلك المباحث المعقدة، ويجاوزها الدكتور إلى ميدان آخر هادئ لا التواء فيه ولا تعقيد، وينطلق مستعرضاً ناقداً في عذوبة وصفاء نفسي. وصراحة جميلة، وتتجلى كل خصائص الدكتور الطيبة. وكل شجاعته الأدبية العالية في مواجهة عيوب الثقافة في مصر، وبيان أوجه علاجها. ويسير كل قارئ مخلص لوجه مصر مع الدكتور في معظم فصوله التالية، في استرواح ولذة مرة، وفي إعجاب وحماسة مرات.

ويبدأ الدكتور بتصوير اضطراب الثقافات التي تتنازع العقل المصري. حسب اختلاف أنواع التعليم، في المراحل الأولى التي يفترض المنطق والواجب أن تتحد، وأن تكون بهذا الاتحاد نواة العقلية العامة للشعب، وتوحد بين اتجاهاته المشتركة، وشعوره بالوطن، وأماله في مستقبله.

«فهناك التعليم الرسمي الذي تنشئه الدولة وتقوم عليه، وقد رسم له الإنجليز طريقة محدودة ضيقة، فأفسدوه وأفسدوا نتائج وأثاره أشد الإفساد.. وهناك التعليم الأجنبي الذي قام في مصر مستظلاً بالامتيازات الأجنبية غير حافل بالدولة ولا خاضع لسلطانها، ولا ملتفت إلى حاجات الشعب وأغراضه ولا معني إلا بنشر ثقافة البلاد التي جاء منها والدعوة لهذه البلاد وتكوين التلاميذ المصريين على نحو أجنبي خالص، خليق أن يبغض إليهم بيئتهم المصرية، وأن

يهون في نفوسهم قدر وطنهم المصري.. وهناك التعليم الوطني الحر الذي يزعم المحافظة على المناهج والبرامج الرسمية، ولكنه إلى عهد قريب لم يكن خاضعاً لمراقبة الدولة وملاحظتها، فكان يمضي كما يريد أو كما يستطيع. وكان يمتاز بخصال أقل ما توصف به أنها مصدر فساد للتفكير ومصدر فساد للخلق، ومصدر فساد للسيرة العامة والخاصة.. وهناك تعليم آخر تشرف عليه الدولة ولا تشرف عليه! تشرف عليه لأنه خاضع آخر الأمر لسلطانها. ولا تشرف عليه لأنه مستقل في حقيقة الأمر استقلالاً عظيماً، وهو التعليم الديني، الذي يقوم عليه الأزهر الشريف وما يتصل به من المعاهد في الأقاليم.. وهو بحكم طبيعته، وبيئته، ومحافظة القائمين عليه، وخضوعهم بحكم هذه المحافظة لكثير من أئقال القرون الوسطى وكثير من أوضاعها، يصوغ التلاميذ والطلاب صياغة خاصة مخالفة للصياغة التي ينتجها التعليم المدني.. وهناك تعليم وسط بين الديني الخالص والمدني الخالص تمثله الآن دار العلوم وقد مثلته مدرسة القضاء حيناً..»

ونحن نتابع باهتمام وإعجاب تصوير الدكتور لاختلاف العقلية التي تنشئها تلك الثقافات، ونذكر معه خطر تعدد وجهات المشرفين عليها، ونقدر خطورة هذا التعدد، الذي يصيب الطفل منذ مراحل التعليم الأولى، وتؤمن برأي الدكتور في وجوب إشراف الدولة على هذه المراحل في جميع نواحي التعليم، بحيث يكون التعليم العالي وحده هو الذي يتمتع بالاستقلال، ويكون حراً في اختيار طريقه إلى المعرفة في حدود القانون العام.

نعم يجب أن تشرف الدولة إشرافاً فعلياً على مرحلة التعليم العام سواء كان ذلك في الأزهر، أو في المدارس الأجنبية أو في المدارس الأهلية؛ لأن ذلك وحده وفي هذا الطور من أطوار مصر هو الكفيل بتوجيه أسس «العقلية» المصرية في النشء الجديد، ويجب أن يكون لوزارة المعارف من المفتشين والمراقبين. ووضع مناهج التعليم في القسمين الأولي والثانوي في الأزهر لا شأن له بهاتين المرحلتين، كما أن استقلال الجامعة مقصور على كلياتها، لا على المدارس التي تغذيها وهي مدارس التعليم العام ولا نرى في هذا ما رآه الأستاذ الكبير الدكتور عبدالسلام بك الكردي من أن فيه تقوية للمركزية التي يشكو منها الدكتور ونحن معه. فاللامركزية يجب أن تأخذ طريقها بعيدة عن الروح العامة للتعليم.

■ واجب الديمقراطية

بعد ذلك يلخص الدكتور مطالب الشعب من الديمقراطية، في أن تكفل لهذا الشعب جميعاً الحياة والحرية والسلم، ويرتب على هذه الكفالة ضرورة نشر التعليم الأولي، وترقية مستواه الحالي، ويشرح في أسلوب عذب وتحليق روعي جميل ضرورة نشر هذا التعليم في مستواه الراقى الذي يشمل تقويم البلد وجغرافيتها واللغة القومية ومبادئ الحساب والصحة في مستوى أعلى من المستوى الحالي وشيئاً من الأعمال اليدوية.

وقد علّق الدكتور الكردي بك على هذا البرنامج ففضل العناية بالإكثار من الأعمال اليدوية، ونحن معه في هذا، مع تمسكنا بالقدر الذي يقترحه الدكتور طه من التعليم النظري.

ويستطرد الدكتور طه من هذا وهو يشرح: لماذا يتعلم أبناؤنا تاريخ البلد وجغرافيته استطراداً عذّباً في بيان معنى الوطن؟ وددت لو أنقله هنا، ووددت لو نقل بنصه إلى كتب التربية الوطنية التي تُعلّم في المدارس، بدل تلك التعريفات الجافة العقيمة للوطن والأمة، وبدل الكلام السقيم الذي يعللون به هناك حب الإنسان لوطنه، أو الكلام الخيالي الطائر الذي تتضمنه بعض أبيات من الشعر ينقلونها هناك نقلاً.

ونحن مع الدكتور في الواجبات التي يجب أن ينهض بها التعليم الأولي والتي يلخصها في «تكوين عقل الصبي وقلبه، وفي حماية جسمه من الآفات والعلل، وتمكينه من النمو المطرد الذي لا يتعرض لاضطراب ولا فساد».

ونحن معه كذلك فيما يجب إزاء هذا المعلم الأولي بأن تكونه الدولة تكويناً صالحاً يبتدئ بعد شهادة إتمام الدراسة الثانوية لا قبلها. وأن تكون الحياة بمدارس المعلمين في بيئة محترمة راقية المعنوية، وأن تمكنه الدولة من الحياة الكريمة وتأجره أجراً يلائم عمله الخطير. ويختم هذا الفصل بقول جميل يؤيد ما ارتفعت به الشكوى من الكثيرين ممن يهتمهم أمر هذا التعليم.

لا أعرف شراً على الحياة العقلية في مصر من أن يكون المعلم الأولي كما هو الآن عندنا سيئ الحال منكسر النفس، محدود الأمل، شاعراً بأنه يمثل أهون الطبقات على وزارة المعارف شأنًا».

■ التعليم العام

ويجاوز الدكتور مرحلة التعليم الأولي، فيجد التعليم الابتدائي مضطرباً، لا يستطيع فهم موضعه من التعليم العام، ويراه أثراً من آثار الاحتلال الإنجليزي، فيقترح أن يندمج في التعليم الثانوي الذي يبدأ بعد التعليم الأولي أو يرافقه في بعض خطواته، ويقترح أن يجعل بين التعليم الأولي والتعليم العام منافذ ومسارب لمن تتضح كفايته لهذا التعليم من تلاميذ المدارس الأولية، فيؤيد بذلك آراء كثير من المخلصين التي أبديت في هذا الموضوع.

وهو من أجل تحقيق هذه الصلة، ومن أجل أسباب أخرى - ستحدث عنها فيما بعد - يقترح أن تكون السنوات الأربع من التعليم العام عارية من تعليم لغة أجنبية، ونحن نوافق في هذه الاقتراحات.

ثم يصل الدكتور إلى نظام المجانية الحالي فينكره أقبح الإنكار، ويقترح أن تعقد المسابقات لهذا الغرض في أثناء التعليم الأولي، على أن يفضل في المجانية النابغون من أولاد المعسرين، فإذا فضل منها شيء فللطبقة التي تليهم في المقدرة على الإنفاق، وهو نظام أدنى إلى الإنصاف وإلى إبطال المحسوبيات والظلامات.

ويعمد الدكتور بعد هذا إلى بحث نقطة تضطرب حولها الأفكار في هذه الأيام، وهي: هل يباح التعليم لجميع الراغبين فيه أم

يعمل حساب التعتل والمخاطر الاجتماعيه. فيضيق نطاقه إلى
القدر الذي تهضمه البلاد؟

ولا يتردد في تسفيه الرأي الثاني بقوة، ويستخدم في هذا التسفيه كل ما أوتي من قوة في المناقشة وإدارة الحديث، ويلوح بالديمقراطية والدستور اللذين ينفيان نظام الطبقات، وهو ما يؤدي إليه حصر التعليم وتضييقه، ويلوح بتزييف الحياة النيابية التي لا يصبح لها معنى إلا إذا تعلم الشعب. ويذكر في ذلك كله كلاماً جميلاً، ويحلق في عليين، ويرضي الإنسانية العالية والشعور الراقى.

ومن بين وسائله في التدليل على صواب رأيه، أنه لا يعترف بأن البطالة قد وجدت وجوداً حقيقياً في مصر. «فما ينبغي أن يضطر الشباب المصريون إلى البطالة على حين يستمتع كثير من الأجانب في ظل مصر بالحياة الناعمة الميسرة، التي لا يجدونها ولا قريباً منها في أوطانهم.. وهل من الحق أن الدولة محتاجة إلى هذه الكثرة الضخمة من الموظفين الأجانب الذين يتقاضون منها أجوراً باهظة.. وهل من الحق أن الدواوين تضيق بالخريجين؟.. والشيء الذي لا شك فيه أن إعادة النظر في أمر المناصب والموظفين خليفة إذا أخذت بالحزم، أن تقتصد للدولة كثيراً من المال وأن تفتح للشباب كثيراً من أبواب العمل، فما أكثر الموظفين الذين يتقاضون الأجور الضخمة ولا يعملون شيئاً، وما أكثر الشباب الذين لا يجدون ما يعملون⁽¹⁾ وهم قادرين على العمل بأيسر الأجر وأقله..» وهذا كله صحيح.

(1) في الأصل: يعملون.

ومن العجيب في أمر الدكتور أنه يطلب هذا التوجيه من المدرسين والمدرسة وهو لا يتحقق ولا يكون صحيحاً إلا إذا كان المدرس خبيراً بالدراسات النفسية الحديثة مثقفاً في التربية وعلم النفس، بينما هو يعارض في أن يزود المدرس بقدر كبير من هذه الثقافات، ويرى أن يقتصر على جانب قليل منها.

ولكن الذي يحيد بالدكتور هذه الحيدة، أن كلية الآداب تتدخل في هذه المسألة وتبدو مصلحتها في الاقتصار على جانب محدود من علوم التربية وهذا يكفي.

■ الديوان والمركزية

ويرتفع الدكتور إلى القمة، وهو يصف ما يجب للمعلم من الثقة والكرامة والاحترام، ويصور أثر المركزية وأثر تدخل الديوان في الغض من هذه الأمور الواجبة، ولا نجد نحن أصدق في تصوير هذه الحالة من قوله:

«والشيء الذي لا شك فيه، والذي يعرفه كل واحد منا ويتحدث به إلى نفسه إذا خلا إليها، وإلى أصدقائه إذا أمن الرقيب، هو أنه لو كشف عن نفوس المعلمين والمتعلمين والمشرفين على التعليم، لرأينا فيها شراً عظيماً، شراً مخيفاً يملأ القلوب فرعاً وإشفاقاً. لو كشف عن نفوس المعلمين والمتعلمين والمشرفين على التعليم لرأينا فيها شكاً، وريباً، وبغضاً وازدراءً، وخوفاً وإشفاقاً؛ ولتساءلنا بعد ذلك: على أي شر ونكر نريد أن نقيم بناء الجيل الجديد؟ ثم يقول عن وزارة المعارف:

«إننا لا نعرف وزارة من الوزارات المصرية يشتد فيها التنافس البغيض بين الموظفين، ويشتد فيها ما يتبع هذا التنافس من التباغض والتحاسد، ومن الكيد، والمكر، ومن الارتياب بكل شيء وبكل إنسان، وسوء الظن بكل شيء وبكل إنسان كوزارة المعارف، فيها تجد ما شئت وما لم تشأ من مكر الصديق بالصديق، وكيد الزميل للزميل، وتوقع الشر من كل مصدر، والتماس الخير من كل مصدر، وفيها تجد التنافس بين الطبقات، والتنافس بين الأفراد، والتنافس بين الطوائف، فالمعلمون ينكرون المفتشين، والمفتشون ينكرون المعلمين، كما ينكرون كبار الموظفين، وكبار الموظفين ينكرون أولئك وهؤلاء».

ويتحدث بمثل هذا عن الفنيين في وزارة المعارف، الذين يوافقون كل وزير على سياسته، ولا يعلمون لهم رأياً فنياً يدافعون عنه، ويعزو إلى هذا الضعف اضطراب سياسة التعليم، ويرى أن الوزارات الأخرى لا تضطرب هذا الاضطراب، لأن فيها موظفين ذوي آراء ينصحون للوزير، ويثبتون على ما يعتقدونه حقاً، ولا يستثنى من هذا الضعف إلا ثلاثة ثبتوا على آرائهم. لم ترهبهم سطوة الوزير، وهم الأستاذ نجيب الهالالي بك سنة 1925، ومدير الجامعة الأستاذ لطفي السيد باشا⁽¹⁾، والدكتور طه حسين بك سنة 1935.

(1) أحمد لطفي السيد باشا [1289-1383هـ، 1872-1963م] من طلائع الليبراليين المصريين، اشتغل بالصحافة والسياسة، وتناحرو القومية المصرية في مواجهة الجامعة الإسلامية، وتولى رئاسة الجامعة المصرية، وجمع اللغة العربية، وترجم بعض الآثار الفلسفية لأرسطو، ويلقبه البعض بأستاذ الجيل.

وقد كنت أحب للدكتور وهو يسجل هذه المثل المجيدة النادرة في تاريخ وزارة المعارف ألا ينسى اسمين آخرين: أحدهما اسم المرحوم الأستاذ أبو الفتح بك الفقي وموقفه مع صاحب المعالي نجيب بك الهلالي سنة 1935 معروف، والثاني اسم حضرة صاحب العزة صادق بك جوهر وموقفه مع صاحب المعالي زكي العربي باشا سنة 1936 معروف كذلك.

ومهما يكن من شيء، ومهما يكن اختلافنا أو اتفاقنا مع الدكتور، فيجب أن نسجل له هذه الصراحة المؤلمة في تصوير عيوب وزارة المعارف الأساسية، التي يراها عقبة في سبيل كل إصلاح للتعليم.

ونحن نتابعه في اقتراحه مجلساً أعلى لوزارة المعارف يشير على الوزير في المسائل العامة، ويختص وحده بتأديب المدرسين، ومجلساً لكل إدارة من إدارات التعليم يرأسه المدير ويتألف من أعضاء عن الجامعة ومن بعض نظار مدارس هذه الإدارة ومدرسيها. ولا نوافق الدكتور عبد السلام الكرداني بك على إنكاره لهذه المجالس إلا في أن يكون للمجلس الأعلى الإشارة على الوزير في السياسة اليومية، فنحن مع الأستاذ في أن يكتفي هذا المجلس بالتوجيه في المسائل العامة، ونشترط اختصاصه بتأديب المدرسين.

■ مشكلة الامتحانات

ويحاول الدكتور علاج المشكلة الخالدة في مصر: مشكلة الامتحانات. فيستعرض كعادته عيوب الامتحانات، ويصور في صدق ووضوح أثر هذه العيوب العقلية والخلقية، وضرر تدخل

السلطات التنفيذية تحت ضغط السياسة لخفض الدرجات وتقرير الملاحق. ثم يقترح علاجاً لذلك أخذت به بعض الأمم. وتحدث عنه الأستاذ القباني⁽¹⁾ حديثاً وافياً في محاضرة له عن الامتحانات: ويتلخص في إلغاء امتحان النقل في مدارس التعليم العام، إلا أن تقضي بذلك الضرورة، ويكتفي بأراء المدرسين بعد أن تمنحهم الوزارة الثقة الكافية لخلق الأمانة في نفوسهم، وعقد امتحانات مسابقة غيرها للدخول في الوظائف.

وهذه اقتراحات متواضعة، إذا قيست بما اقترحه الأستاذ القباني، وما أخذت به فعلاً الأمم من إدخال مقاييس الذكاء في الامتحان، واختبار العقلية لا التحصيل العلمي، وهو ما نطمح إليه في يوم من الأيام.

■ المعلمون

ويستطرد في بيان عيوب الامتحان إلى أنه يكف التلميذ عن القراءة وحب الاستطلاع فلا ينسى أن يقول: إن المدرسين كذلك لا يقرءون. ولكنه لا يقسو على المعلمين الحاليين مع أنهم لم يتخرجوا في الجامعة كما قسا عليهم فيما بعد، بل يصور عذرهم في هذا أجمل تصوير، وهو أنهم لا يجدون وقتاً للقراءة، لأن الدولة ترهقهم بالعمل إلى حد غير معقول، ولأنها تضيق عليهم في حياتهم المادية، ولأن حياتهم المعنوية قائمة مظلمة، ولأنهم لا يتمتعون بالثقة والكرامة.

(1) إسماعيل القباني [1306 - 1383 هـ، 1898 - 1963 م] من علماء أصول التربية والتعليم. تولى عمادة معهد التربية، وتولى وزارة المعارف عقب قيام ثورة يوليو سنة 1952 م.

ويأخذ الدكتور بعد هذا في رسم الخطة للتعليم العام. على النحو الجديد الذي اقترحه له من النظام، وفي هذا يشتط خياله، ويغريه المثل الأعلى فيبتعد عما يمكن؛ وتظهر آثار الثقافة الفرنسية وتشبع نفس الدكتور بها، ويبدو متناقضاً أو شبه متناقض مع الدكتور طه بك الذي يدعو إلى تخفيف الامتحانات والكف عن توجيهها، إلى اختبار الذاكرة والتحصيل العلمي.

فهو أولاً: يتوسع في تعليم اللغات الأجنبية توسعاً عجيباً. حسبك أن تعلم أنه يشمل إدخال لغتين أخريين هما الطليانية والألمانية، وتقرير اللغتين اللاتينية واليونانية، واللغتين الفارسية والعبرية. وذلك منذ السنة الخامسة في التعليم العام أي بعد المرحلة الابتدائية التي يقصرها على اللغة الوطنية.

وهو ثانياً: يريد تنويع التعليم العام من بعد المرحلة الابتدائية مباشرة إلى ثلاثة أنواع: أحدها: الذي يعتمد على اللغات الحية والذي يتجه بعد الثقافة العامة اتجاهها رياضياً أو علمياً. والثاني: التعليم الذي يعتمد على اللاتينية واليونانية. ويتجه بعد الثقافة العامة إلى الدراسات الأدبية على اختلافها. والثالث: التعليم الذي يعتمد على اللغة العربية ويتجه بعد الثقافة العامة إلى الدراسة الأدبية العربية الخالصة (وهذا هو الذي يدرس العبرية والفارسية).

ولم تدركني الشفقة على الدكتور. ولم أخالفه وأنا أميل إلى موافقته وأجاهد نفسي على نسيان رأبي ومتابعته، إلى حين رأيتَه يجاهد في مشقة وعنف لتبرير دراسة اللغات الميتة والقديمة في التعليم العام.

وللدكتور في هذه اللغات حجج تبدو مستقيمة، وهي أن الجامعة تضطر إلى تعليمها للطلبة بعد مجيئهم إليها فيتعطلون ولا يبلغون الغاية فيها، وأن الثقافة للعقلية العالية تحتم دراسة اللاتينية واليونانية، وأن الجامعات في العالم كله تعلم اللاتينية، فوجب أن تكون الجامعة المصرية مثلها، وأن اللاتينية ضرورية لإتقان اللغات الحية.

ونحن لا نحاول معارضة الدكتور في وجوب تعلم هذه اللغات في الجامعة. وهو أدري منا بضرورتها للدراسات العالية. ولكننا لا نستطيع أن نوافق على دراستها في مرحلة التعليم العام، ولو وافقنا ما استطاع البرنامج أن يتسع لها، ما لم يقع في العيوب التي نشكو منها.

والعلاج الذي يقترحه الدكتور للتخفيف وهو تنويع التعليم الثانوي من أوله لست أنا وليس الدكتور هو الذي يحكم عليه بالصلاح أو الفساد، وإنما يجب أن يدلي فيه علماء النفس والتربية بأرائهم، وأظنهم سيقولون: إن مواهب التلميذ واتجاهه لا تتضح في هذه السن وفي هذه الدراسة وضوحاً يجعلنا نطمئن إلى اختيار طريق من طرق التخصص له.

ونحن نشفق أن تكون الثقافة الفرنسية التي تُقَفِّها الدكتور، واكتظاظ البرنامج الفرنسي بالمواد هو الذي أوحى إلى الدكتور من حيث لا يشعر هذه الترجمة الهائلة في برامج التعليم العام. ونحن كذلك نؤثر البرنامج الإنجليزي المخفف من المواد، المعنى بالعقلية العامة والرياضة البدنية على البرنامج الفرنسي. فإذا كان لا بد فالبرامج الألماني المتوسط بينهما هو الأصح لنا في فترة الانتقال.

وأنا شخصياً أنكر كل برنامج يكلف التلميذ من سن السابعة إلى العاشرة أن يشغل بالدراسة النظرية أكثر من أربع ساعات في اليوم بحال من الأحوال، وأنكر كل برنامج يكلفه من سن الحادية عشرة إلى السادسة عشرة أكثر من ست ساعات، أما ما عدا ذلك فلرياضة البدنية، وللفنون الحرة، وللقراءة الشخصية.

ولتذكر دائماً أن الجامعة كالمدرسة خلقت للطالب ولم يخلق الطالب لها، فلا يجوز بحال أن تكون مطالب الجامعة فوق المطالب المعقولة للبنية والعقل والطاقة المحدودة للتلميذ، وإذا بدا لهذه الجامعة أن تتمسك بمستوى خاص من الدراسات، فليكن ذلك بإطالة سنواتها هي، أو بتنويع برامجها هي، بحيث توفر للطالب المتخصص الوقت الكافي وتعفيه من بعض المواد التي لا يحتاج إليها في تخصصه.

ونحن نخشى أن يقول بعض الخبيثاء: إن الدكتور إنما يحرض على اللغات اللاتينية واليونانية، والعبرية، والفارسية، كما يحرض على إدخال اللغتين الإيطالية والألمانية، لأن بعض

خريجي الجامعة تحفظوا هذه اللغة، فلا بد أن يشتغلوا إذن بتدريسها في المدارس!

وأنا لا نكره لخريجي كلية الآداب أو غيرها أن يجدوا عملاً، ولكن ربما حرص هؤلاء الخبيثاء على إثبات أن مصلحة هؤلاء الخريجين لا يجوز أن تعدي على مصلحة التربية والثقافة!

ولن ننسى هنا أن نعلن موافقتنا التامة للدكتور على تمكين اللغة القومية من الانفراد في السنوات الأولى، فاللغة العربية في الواقع لغة أجنبية بالنسبة للطفل المصري وبينته، وهو يلاقي في تعلمها عننا كتعلم لغة أجنبية عنه، فوجب أن يتوفر لها الوقت الكافي.

وقد سبقت جماعة دار العلوم بهذا الرأي في تقرير لها عام 1938 على إثر ضجة من الضجات المقتعلة عن ضعف اللغة العربية في المدارس، فقالت في هذا التقرير ما يأتي بعد ذكر عدة أسباب لتعويق خطوات اللغة العربية في المدارس:

«ولا ننسى - إلى جانب ما تقدم - أن اللغة الأجنبية تغزو عقل الطفل في سن مبكرة، في المدارس الابتدائية، كما هو معلوم. وتنال من زمن الطفل وجهده نصيبنا، كانت اللغة القومية والثقافية العقلية أجدر به وأولى، ولسنا هنا بصدد البحث النفسي المستفيض في استعداد الطفل لتلقي لغة أجنبية في السن المبكرة من الدراسة الابتدائية، ولكننا نشير إلى حقيقة تدرك معكوسة ويتخذ من عكسها أساس لإدخال اللغات ابتداء من السنة الأولى الابتدائية.

ذلك أن المروثة العقلية، التي يظن بعضهم أنها تسوغ هذا التبكير، إنما تكون على أشدها بين الثالثة والسابعة. وتكون مقدرة سمعية تقليدية، أما في سن السابعة فإنها تفتقر إلى حد جعل الباحثين لا يرون من الصواب أن يشغل العقل بلغتين في وقت واحد. على أنا نترك هذا البحث فالمريون قد فرغوا من التدليل عليه.»

قضية اللغة العربية وتدريسها

وردت ألا أحدث عن هذا الفصل من كتاب الدكتور، فأنا وهو متهمان حين نتحدث بالميل والهوى. ولكن لأبد من هذا الحديث، فقد استغرق هذا الفصل من ص 303 إلى ص 403 في الكتاب. مائة صفحة كاملة لا يجوز أن نتجاوزها مهما يكن الاتهام الذي يوجه إلينا، ونحن لن نسوق الحديث فيها بالعاطفة والهوى، فللقارئ عقل نضع أمامه الحقائق التي تراها وهو الحكم بيننا وبين الدكتور طه حسين بك.

وسنلخص آراء الدكتور في هذه المسألة الشائكة ثم نعلق عليها:

1- أن الأزهر لا ينبغي له أن يساهم في تدريس اللغة العربية بالمدارس العامة، ما لم تشرف الدولة على قسميه الابتدائي والثانوي، حتى تضمن بذلك وحدة الطبيعة العقلية بين جميع المتقفين في البلد، وخشية أن يبيث في التلاميذ الصغار مبادئ رجعية تتنافر مع الدراسة المدنية التي يدرسونها، وتوقع ذهن الطالب وضميره في اختلاط وارتباك بين العقلية المختلفة التي تشرف على تثقيفه.

هذا. ولأن خريج الأزهر حين يعين في مدارس الدولة يخضع لسلطتين متناقضتين في آن واحد: فهو خاضع للدولة التي وظفته، وفي الوقت نفسه خاضع لسلطة هيئة كبار العلماء، التي

تملك سحب شهادته منه، فتضطر الدولة للخضوع لهذا الحرمان، لأن شهادته هي التي تخوله التدريس، أو تقع في صدام مع هيئة كبار العلماء. وليست مسألة الأستاذ الشيخ علي عبد الرازق بعيدة عن الأذهان.

وهذا كله حق، لا لأنه يوافق هوى في نفسي عن قضية اللغة العربية بين دار العلوم والأزهر، ولكن لأنني لا أدري كيف يرد الإنسان على هذه الأسباب المقنعة الوجيهة.

لا بل إننا لنزيد عليه أن إشراف الدولة - عن طريق وزارة المعارف - لا ينبغي أن يقف عند القسمين الابتدائي والثانوي من الأزهر. بل يجب أن تشترك في إعداد المتخرج في كلية اللغة العربية - وإذا أصر الأزهر على بقاء هذه الكلية، ولم تجد الدولة في نفسها من الشجاعة ما تقول له به: نحن لسنا في حاجة إلى كليتك هذه - فللأزهر أن يشتغل في كلياته الأخرى التي يعدها لمهام دينية بحتة. ولكن ليس له أن يستقل في الكلية التي تخرج المدرسين لمدارس الوزارة. وإذا كانت وزارة المعارف لا تزال تصر - ولها الحق في هذا الإصرار - على بقاء دار العلوم ومعهد التربية بعيدين عن الجامعة، فإنها خليفة من باب أولى أن تبعد كلية اللغة العربية عن الأزهر أو على الأقل تشرف عليها إشرافاً فعلياً، قبل أن تسلم خريجيتها أبناء الأمة الصغار، يصوغونهم حسبما يريدون.

2 - أن اللغة العربية ضعيفة في المدارس، صعبة القواعد معقدة الأساليب، وأن هناك خطراً كبيراً - إذا لم تصلح هذه اللغة

وتُصلح دراستها في نحوها وصرفها وإملائها - أن تنزع الأمة عنها إلى اللغة العامية، وإلى الحروف اللاتينية، وأن الطلبة يجدون في دراسة اللغات الأجنبية متاعاً ولذة لا يجدونها في اللغة العربية.

ونحن مع الدكتور في صعوبة قواعد اللغة العربية نحوها وصرفها وإملائها وفي وجوب إصلاح هذا كله، والتخفيف منه إلى القدر المستطاع، وما نأبى هذا الإصلاح.

وإذا كان الدكتور قد أحققه وقوف بعض الهيئات في سبيل اقتراحات اللجنة التي شكلت لهذا الغرض، فصاح صيحة الخطر. فنحن لم نعارض في مبدأ الإصلاح إنما كانت هناك ملاحظات ومآخذ على طريقة الإصلاح: لأن اللجنة لم تحل الصعوبات، ولكنها دارت حولها دون أن تواجهها مواجهة منتجة. فإذا قيض الله لها أو لغيرها أن تهتدي إلى حلول سليمة كان من الواجب الأخذ بها.

ولا أدع هذه الفرصة، قبل أن أقرر أنني مع الدكتور في إصلاح دروس البلاغة لأنها في وضعها الحاضر تعتبر عندي مفسدة للذوق الأدبي، وزائدة ثقيلة، فيجب أن ترتقي من هذه القواعد الجافة إلى النقد الفني، وأن تكون دراستها في النص الأدبي وتفسيره وشرح مزاياه الفنية، دون التعريفات؛ وأنني معه كذلك في التخفف من أبواب الصرف إلا اليسير الدائر على الألسنة، وفي إصلاح الإملاء بحيث يوافق النطق الكتابية، وقد سبق أن أبديت هذا الرأي في العام الماضي على صفحات «الأهرام».

وقد درست اللجنة العلمية لجماعة دار العلوم موضوع تيسير اللغة العربية في المدارس العامة، فذهبت إلى اقتراحات تؤدي إلى هذه الغاية نفسها، في أسلوب متحفظ رزين، وهذه هي القواعد العامة التي بنت عليها برنامجها الذي اقترحت مفضلاً في النحو والصرف:

أ- تترك التعاريف النحوية بتاتاً، فإن الأمثلة التي تمر بالسمع وبالنظر وتنال العناية من الشرح والتفهم أجدي في فهم القواعد فهماً علمياً وفي تعرف وظيفة الكلمة في الجملة وارتباط هذه بما لها من حكم إعرابي أو غير إعرابي وأدنى إلى محاكاة المتعلم لهذه التراكم، وإلى طبع لسانه على التعبير الصحيح، وهذه الطريقة، طريقة عرض العبارات الصحيحة على المتعلمين هي الطريقة الطبيعية في تعلم اللغات والإلمام بخصائصها.

على أننا حين نلجأ إلى الأمثلة لتعرف القاعدة لا نبعد عن الأصول المنطقية، فالتعريف بالمثال صحيح متداول في الكتب القديمة والحديثة.

ب- يجتنب من الألفاظ الاصطلاحية ما لا داعي إليه، ونوجه ذهن المتعلم إلى وظيفة الكلمة في الجملة وما أفادته من معنى، وإن بعض الألفاظ الاصطلاحية يمكن الاستغناء عنه بعبارات أقرب فهماً وأيسر مثلاً للمتعلم مع الوفاء بالغرض الذي من أجله وضع الاصطلاح.

ج - إن الغرض من الإعراب هو ضبط أواخر الكلمات، وبيان سبب هذا الضبط، وحسينا أن نعبّر عن هذا بطريقة موجزة، وليكن أساسه فهم وظيفة الكلمة في التركيب.

د - لا داعي للتعرض لإعراب ما ليس لإعرابه أثر عملي في فهم الجمل أو ضبط الكلمات، كأدوات الشرط وصيغتي التعجب ونحو ذلك.

هـ - لا داعي للتعرض لعلامات بناء الماضي والأمر وأحوالهما المختلفة. فإن ضبط الآخر فيها يكاد يكون طبيعياً في جميع الأحوال، وليس النص على ما بني عليه الفعل إلا تعبيراً عن الأمر الواضح المحسوس.

و - لا داعي للنص على بناء الحروف، ما دام المتعلم قد عرفها بهذه الحالة الخاصة، فهذا النص إنما هو من قبيل تقرير الواقع الذي لا يحتمل تغييراً.

ز - القواعد القليلة الورد لا يبحث فيها إلا عند الضرورة على أن يكون ذلك بإيجاز مثل عمل (لات) وحكم المفعول معه.

ح - تترك القواعد التي لا أثر لها في ضبط الكلمات أو طرق اعتناقها، كشروط عمل اسمي الفاعل والمفعول ومواضع الابتداء بالنكرة ومجيء الحال معرفة أو من النكرة إلى غير ذلك.

وهذه الأسس - كما يرى الدكتور - تحقق غاية من تبسيط النحو والصرف بلا خروج على النحو المعروف، ودون تعارض أو اصطدام. وأما أن دراسة اللغة العربية في المدارس فاسدة، وأساليبها هي أساليب القرون الوسطى، وأن هناك خطراً من الانتكاس إلى العامية، وأن اللغات الأجنبية أكثر منها نتاجاً فليسمح لي الدكتور أن أخالفه في ذلك كثيراً.

ولا يحسب الدكتور أو غيره أنني راض كل الرضا عن دراسة اللغة العربية في مدارسنا، فإن لي عليها مأخذ:

منها: أنها لا تعنى بخلق الذوق الأدبي الممتاز أو تنميته، ولا تُفسح له الطريق حين يوجد في نفوس الطلاب، بل هي تضايقه وقد تخنقه.

ومنها: أن دراسة الأدب مع ما نالها من الاعتدال بتدريس تاريخ العصر الحديث أولاً والتدرج منه إلى العصور القديمة، فإنها لا تزال ترزح تحت اختيار سخيף للنماذج؛ وقد ابتدأت من عصر كان الأدب فيه منحطاً، لم تدركه النهضة الأخيرة بروحها وحياتها، فهو خليق أن يبت في نفوس التلاميذ مذاهب أدبية منحطة، وأذواقاً فنية رديئة. ومن رأبي أن التلاميذ في المدارس الثانوية لا يصح أن يدرسوا أو يحفظوا إلا العصور الحية والنماذج العالية في الأدب العربي، وأن تترك الدراسة المفصلة إلى الأقسام العالية، حين نضمن أن ذوق التلميذ قد تربى، ولم تعد تؤثر فيه النماذج السيئة.

وليس أخطر على ذوق الشادي في الأدب من أن يبدؤه بنماذج من الساعاتي، وعبد الله فكري⁽¹⁾ باشا وأمثالهما. حتى إذا تدرج عاد لعهد البهاء زهير⁽²⁾ وابن سناء الملك⁽³⁾ وابن مطروح⁽⁴⁾ وأمثالهم. ومنها أن كتب المطالعة موضوعة على غير أساس فني، وبلا وجهة معينة؛ وإنما هي بضعة موضوعات حشرت حشرًا وجمعت جمعًا؛ ويستوي في هذا جميع الكتب حتى التي اشترك فيها رجال الجامعة، وكان يجب أن توضع على أساس تعليمي، فتتضمن أولاً نظامًا خاصًا لبث المعلومات العامة في نفوس الطلاب بتدرج مقصود؛ وتتضمن ثانيًا نظامًا خاصًا في التعريف بمفردات اللغة في تراكيب مختلفة تشرح خصائصها، بحيث يحوي كل موضوع عددًا من هذه المفردات ومشتقاتها في ثناياه؛ وتتضمن - كما اقترح الدكتور - قطعًا مترجمة من الآداب الأجنبية المختلفة.

ومن هنا يعلم الدكتور أنني معه في كثير من آرائه عن دراسة اللغة العربية. ولكن من العدل أن نقول: إنما هي مأخذ منظور

(1) عبد الله فكري [1250-1307 هـ / 1834-1890 م] من مشاهير الكتاب. تولى نظارة المعارف قبيل الثورة العرابية، وله وصف لرحلته الأوربية [إرشاد الأتباع إلى محاسن أوربا]

(2) البهاء زهير [581-656 هـ / 1185-1258 م] من كبار الشعراء، وأصحاب الرسائل الشهيرة، ورجال الإدارة في العصر الأيوبي.

(3) ابن سناء الملك [509-608 هـ / 1115-1211 م] من أشهر شعراء العصر الأيوبي، تميز شعره بالمحسنات البديعية.

(4) ابن مطروح [592-649 هـ / 1196-1251 م] من شعراء العصر الأيوبي. اشتغل بالسياسة، وتولى الوزارة.

فيها إلى المثل الأعلى، وأن الدراسة الحالية - وإن لم تكن قد بلغت هذا المنال - لم تنحط إلى حيث يريد أن يصورها الدكتور.

بل نحن نرتقي من هذا فنقرر أن اللغة العربية قد تقدمت كثيراً. وهي دأبة التقدم على أيدي مدرسيها الحاليين؛ وهي لا تنحسر عن المجتمع المصري لتخلي مكانها للعامية، بل هي - على العكس - تجلي هذه العامية عن كثير من معاقلها، ولا يعدم الإنسان أن يجد الفصحى الآن تدب إلى الأسواق. والأكواخ والحقول أيضاً، بشكل لم يكن معهوداً قبل ربع قرن فقط، وقد بينت مذكرة جماعة دار العلوم التي سبقت الإشارة إليها هذه النقطة أوضح بيان.

وليس صحيحاً أن التلاميذ يتفوقون في اللغات الأجنبية أكثر من اللغة العربية، فمع ملاحظة ما تقدم من أن اللغة الفصحى هي أيضاً أجنبية بالقياس إلى المصري، فإننا نزيد أنها تلقى من مقاومة لغة البيت والشارع ولغة مدرسي غير العربية، ما لا تلقاه الإنجليزية والفرنسية، وهي مع ذلك أبين أثراً في الطالب منهما: وكل منصف يعلم أن طالب الشهادة الثانوية لا يستطيع كتابة رسالة باللغة الإنجليزية ولا يحسن قراءة صحيفة إنجليزية، وليس هو كذلك في اللغة العربية، والدكتور العميد يعترف في موضع آخر بأن الطلبة يدرسون لغتين أجنبيتين ولكنهم لا يستفيدون منهما شيئاً. ومن قبل هذا قرر معالي نجيب الهلالي بك في تقريره عن التعليم الثانوي، أن الطلاب لا يعرفون من اللغات الأجنبية إلا مبادئ سطحية.

وقد تابع الدكتور طه بك في هذا الموضوع ما جاء من قبل في كتاب الدكتور حافظ عفيفي باشا [على هامش السياسة] وكلاهما رسم صورة منكرة لدرس اللغة العربية في المدارس الابتدائية والثانوية. فأما الدكتور عفيفي باشا فمع احترامنا له نقول: إنه انتزع صورته من أيام دراسته هو، وله عذره فهو بعيد عن دائرة المدارس. وأما الدكتور طه بك فمع قربه من المدارس، إلا أن له عذره أيضاً، فهو مشغول بالآداب جميعها ومشغول بالجامعة عن كل ما عداها!

ويعقد الأستاذ العميد موازنة بين ثقافة الطلاب الأجانب في لغاتهم وآدابها كما وجدهم في فرنسا عند سفره للدراسة في «السوريون» وثقافة الطالب المصري في لغته وآدابها، حيث تنعدم كل أسس الموازنة؛ ويمكن في اختصار أن يقال: إن كل عوامل البيئة هناك مساعدة، وكل عوامل البيئة هنا معاكسة حسبنا هذا.

ويرى الدكتور أن من الجرم ألا يعرف الطلبة المصريون هنا شيئاً عن هوميروس، ⁽¹⁾ ويندار، ⁽²⁾ وهوراس، ⁽³⁾ وفرجيل، ⁽⁴⁾

(1) هوميروس أعظم شعراء اليونان، ومؤسس أمتهم ونهضتهم واشتهر بـ «الإلياذة والأوديسا» التي عدت أشهر الملاحم العالمية.

(2) بندار [518-438 ق.م] من مشاهير الشعراء الغنائيين عند اليونان، استخدم الأساطير في أشعاره، التي اهتمت بالأبطال والبطولات.

(3) هوراس [القرن الأول ق.م] من أعظم شعراء اللاتين، عاش في عصر أغسطس وبلاطه وكان صديقاً لفرجيل.

(4) فرجيل [70-19 ق.م] أعظم شعراء الرومان، اشتهر بلحمة «الإنياذة».

ودانتني ، وسرفنتس ، وجوته ، وفليكتور هوجو ، كما يعرف الطلبة الأجانب في فرنسا.

وأنا مع الدكتور في وجوب المعرفة بهؤلاء، وفي إيجاد مترجمات لهم فيما يقرأ طلابنا كما قدمت، ولكنني أسأل الدكتور: ألم يسأل نفسه مرة كم يعرف الطلبة الأجانب عن المتنبي ،⁽⁵⁾ والمعري ،⁽⁶⁾ وابن الرومي ،⁽⁷⁾ والشريف الرضي من شعرائنا الأعلام؟ بل كم يعرف الطلبة الفرنسيون مثلاً عن: ملتن ،⁽⁹⁾

- (1) دانتني [1265-1321م] شاعر إيطالي، اشتهر بملحمته «الكوميديا الإلهية».
- (2) سرفنتس [1547-1616م] روائي وشاعر وكاتب مسرحي إسباني. تعد روايته «دون كيخوته» من روائع الأدب العالمي.
- (3) جوته [1749-1832م] شاعر وكاتب مسرحي وروائي ألماني. من أشهر أعماله «الأم قرنر». وتقع مؤلفاته في نحو مائة وأربعين مجلداً.
- (4) فيكتور هوجو [1802-1885م] شاعر وروائي وكاتب مسرحي فرنسي. من أشهر أعماله مسرحية «كرومويل» ورواية «البؤساء».
- (5) المتنبي [302-354هـ 915-965م] أحد أشهر شعراء العربية، وأصحاب النزعة الفلسفية. برع في المديح والهجاء، واتصل بالدولة الإخشيدية، وخلدت أشعاره سيف الدولة الحمداني.
- (6) أبو العلاء المعري [362-449هـ 973-1057م] شاعر الفلاسفة وفيلسوف الشعراء. له - غير الشعر - رسائل، من أشهرها «رسالة الغفران».
- (7) ابن الرومي [211-283هـ 826-896م] بغدادى، من أصول غير عربية، تفرغ للشعر، فغدا من مشاهير شعراء العربية، الذين تميز شعرهم بالرفقة والعمق الفلسفي.
- (8) الشريف الرضي [359-406هـ 970-1016م] من أشهر الأدباء في بغداد. تولى نقابة الطالبين، وله إبداعات ومختارات كثيرة من أشهرها «نهج البلاغة» للإمام علي بن أبي طالب.
- (9) ملتن [1608-1674م] شاعر إنجليزي، دافع عن حرية الصحافة، وناصر حكومة كرومويل، وتولى بعض المناصب الإدارية فيها، ومن أشهر أعماله الأدبية ملحمة «القرديوس المفقود» وملحمة «القرديوس المستعاد».

(1) وجراي ، وكيّس ، وورد سورث ، وورد سورث من غير الفرنسيين، ذلك أنه لفت نظري في الأسماء التي أوردها أنها جميعاً من اللاتين، الذين لا عجب ولا فضل للطالب الفرنسي إذا ألمّ بهم، كما نلم نحن بشعراء العربية..!

ثم لنعد إلى آراء الدكتور عن قضية اللغة العربية:

3- أن دار العلوم لا تصلح لتخريج مدرسي اللغة العربية: لأن خريجها لا يعرفون لغة أجنبية، ولم يتقنوا العبرية والفارسية، ولأنها لا تخضع في برامجها ونظامها لديوان وزارة المعارف وسلطته المركزية، ولأنها تجمع بين الدراسة العلمية ودراسة علوم التربية، ولأنها لم تجدد شيئاً في نحو البصرة والكوفة، بينما العلوم الطبيعية والرياضية تطورت وتحورت، ولأنها لم تشترك في خلق النهضة الأدبية. ولم يكن منها أحد من المشهورين الذين يقودون الجيل في السياسة أو الأدب أو الاجتماع، ولأن وزارة المعارف دائبة الشكوى من ضعف اللغة العربية في المدارس.

- (1) جراي [1716-1771م] شاعر إنجليزي، من كبار شعراء القرن الثامن عشر، مثل المرحلة الانتقالية من الكلاسيكية إلى الرومانسية. رفض أن يكون شاعر البلاط الملكي، وعمل أستاذاً للتاريخ القديم بجامعة كيمبردج سنة 1768م
- (2) كيّس [1795-1821م] من أكبر شعراء الرومانسية الغنائية الإنجليز. أكثر من استخدام الأساطير اليونانية في أشعاره، ومن أشهر قصائده «إلى الخريف» و«إلى العنديل»
- (3) ورد سورث [1770-1850م] شاعر إنجليزي، يعد المؤسس الحقيقي للمدرسة الرومانسية في الشعر، تأثر بالثورة الفرنسية وفلاسفتها. ومن أشهر قصائده «لمحات من الخلود»

ويرتب على هذا كله نتيجته المنتظرة، وهي أن خريجي كلية الآداب أصلح لهذه الدراسة لكل ما سبق، ولأن من تخرجوا في قسم اللغة العربية بها يدرسون الآن بالمدارس، ويشهد لهم المفتشون من خريجي دار العلوم أنفسهم بالتفوق. فلننظر في جميع هذه الوجوه.

لا يحسب أحد أننا راضون كل الرضا عن ثقافة دار العلوم، فلا ريب أن جهل المدرس باللغة الأجنبية يقص أجنحته عن التحليق، وعن متابعة آخر البحوث العلمية والنفسية لتجديد نفسه ومعلوماته، وإنما يخفف من حدة هذه الحقيقة كثرة المترجمات الآن، وهي تسمح - إلى حد ما - بتتابع التطورات الفكرية في العالم. ولا ريب كذلك أن دراسة الأدب ناقصة في هذه المدرسة، ومثلها دراسة التربية وعلم النفس.

وأنا على ثقة أن تصريحاتي هذه ستغضب الكثير من إخواني وأساتذتي ورؤسائي على السواء. ولكن لا بد منها، فقد سبق لي أن صرحت بها، وأنا طالب في المدرسة منذ ست سنوات، وقد قدمت بها اقتراحات ضمنيتها برامج كاملة للدراسة بالمدرسة إلى صاحب العزة ناظرها، واقترحت أن تكون للمدرسة تجهيزية خاصة، تُدرّس بها اللغة الإنجليزية منذ أول سنة، وتتوسع في دراسة اللغة العربية وعلوم الدين، فتتهيئ بذلك للقسم العالي، على أن تستمر دراسة الإنجليزية في هذا القسم، ويتوسع في دراسة اللغة العبرية، وفي علوم التربية، ويخلق درس النقد الفني بجانب تاريخ أدب اللغة الذي يدرس الآن، وتزداد سنو الدراسة بالقسم

العالي إلى ست سنوات، تنتهي بتقديم رسالة، ويستقل مجلس إدارتها بتسيير نظامها.

هذه كانت مقترحاتي، ولا زلت مصرّاً عليها، وهي تتفق مع الملاحظات الثلاث الأولى للدكتور. والحق حق من أية جهة جاء. ولكن هذا شيء، والنتائج التي يرتبها الدكتور شيء آخر. فإن هذا المدرس الناقص لا يزال حتي اليوم أصلح من تخرجهم المعاهد كلها للتدريس بالمدارس العامة؛ وذلك لأمر واحد بسيط، هو أنه خير من درس اللغة العربية دراسة منظمة صحيحة في المستوى المطلوب.

ولو أن طالب قسم اللغة العربية بكلية الآداب يدرس على هذا النسق، بجانب ما يتوفر له من لغة أجنبية، لكان بلا شك أصلح. ولكن للجو المدرسي وللتقاليد المدرسية قيمة في هذا النحو من الدراسة، لا أحسب الدكتور يغفلها بينه وبين نفسه. وهو يعلم تلك الحقيقة الواضحة التي صرح بها ذات يوم الدكتور منصور بك فهمي⁽¹⁾ - أحد عمداء كلية الآداب - وهي أن طلبة الكلية لا يدرسون اللغة العربية، ولكنهم - على أكثر تقدير - يتثقفون ثقافة عربية؛ وفرق بين التعبيرين، كما لا بد أن يعلم الدكتور.

ولا نريد نحن أن نتابع بعض الخبثاء الذين يقولون: إن الدكتور العميد إنما يكره تدريس النحو في المدارس لهذه العلة نفسها!

(1) منصور فهمي باشا [1303-1378هـ / 1886-1959م] فيلسوف وباحث، بدأ حياته مهجوراً بالغرب، ثم انتمى للخيار الحضاري الإسلامي. وتولى العديد من المناصب في الجامعة ودار الكتب المصرية.

أما الثقافات الأدبية وتفوق طلبة كلية الآداب فيها، فليسمح لي الدكتور أن أصارحه بحقيقة وقعت لي: لقد كنت وأنا طالب، شديد الحنق على دار العلوم، شديد النقمة على تقصيرها في حق الثقافات الأدبية، وكنت أتخيل أن هناك على الضفة الأخرى للنيل، وفي مدرجات الجامعات عالماً آخر من الثقافة الأخرى. وكان هذا التخيل يزيد نقمتي على المدرسة التي لا تلبى كل حاجة نفسي، ومضت أيام، واختلطت بأبناء الضفة الأخرى، وقرأت ما يكتبون، فالحق أقول لك يا دكتور: لقد علمت أنني ظالم لنفسي ولمعهدي وقد هدأت ثورتي وزالت حدتها، وتيقنت يوم ذاك أن أبناء الضفة اليسرى وأبناء الضفة اليمنى للنيل، لا يفترقون كثيراً إلا في الظواهر والقشور!

ولقد شاء الدكتور أن يسجل لخريجي الآداب اعترافاً من المفتشين، فأحب أن أرجو الدكتور في مراجعة هذه المسألة، فلعل هؤلاء الخريجين خجلوا منه فغيروا له وجه الحقيقة؛ وأحب أن أذكر له مثلين اثنين. أولهما واحد من هؤلاء عُنِين في مدرسة ثانوية مدرساً للغة العربية، وزاره أحد حضرات المفتشين فاقترح أن ينقل إلى المدارس الابتدائية، فنفذ عميد في كلية الآداب الاقتراح بصورة أخرى. وهي إرسال هذا المدرس في بعثة من بعثات الجامعة لدراسة اللغة السريانية.

وثانيهما مدرس كذلك من هؤلاء كان في الجمعية الخيرية الإسلامية الابتدائية، فزاره مفتش كذلك، واقترح عدم صلاحيته للتدريس بالمدارس الابتدائية، فنقله كذلك عميد كلية الآداب معيداً في كلية الآداب.

يجب يا دكتور أن تبقى دار العلوم، وأن تطالب لها كما نطالب بالإصلاح والاستقلال؛ فتنهض بمهمتها في المستقبل كما نهضت بها في الماضي لمصلحة الجميع..

وأما الجمع بين الدراسة العلمية ودراسة التربية فلننظر رأي الدكتور فيه: فهو في ص 348 من الكتاب يستنكر الجمع بين الدراساتين. وفي ص 367 يرى أن يدرس طلبية كليتي الآداب والعلوم في الكليتين وفي معهد التربية ابتداء من السنة الثالثة ويجمعوا بين الدراساتين. وفي ص 397 يعود إلى تحريم هذا الجمع في دار العلوم وفي مدرسة المعلمين العليا الملغاة. وفي ص 431 يعود إلى تحليله في كلية الآداب ومعهد التربية.

فأنت ترى من هذا أنه حيثما كان الجمع بين الدراساتين في دار العلوم فهو محرم أي تحريم؛ ومتى كان في كلية الآداب فهو محلل أي تحليل؛ وليس يمثل هذا تساس شئون التعليم!

وأما أن دار العلوم تدرس نحو البصرة والكوفة، ولا تجدد فيهما كما في علوم الطبيعة فلست أدري أن الدكتور يجد في هذه الموازنة.. أليس ثمة فارق بين علوم الطبيعة القائمة على المشاهدات والقوانين الطبيعية المجهولة التي تكشف يوماً بعد يوم. وبين العلوم اللسانية القائمة على أسس ثابتة لا تزيد؟

وقد تألفت لجنة لإصلاح النحو بإرشاد الدكتور، فهل تراها صنعت نحوًا غير نحو البصرة والكوفة؟ وقد اشتغل الدكتور

أستاذًا للدراسات العربية عشرين عامًا، وسيطر على كثير من اللجان، بل كثير من الوزارات! فهل تراه صنع نحوًا غير نحو البصرة والكوفة؟ الحق أقول لك يا دكتور: كان خيزًا ألا تعرض لمثل هذا الحديث!

بقي أن دار العلوم لم تشترك في خلق النهضة ولم يكن من خريجيتها أحد من زعمائها، وهذه مسألة وقَّأها الدكتور «زكي مبارك»⁽¹⁾ حقها في عدد الرسالة (290) وبينَّ فيها مجد الجندي المجهول، الذي يعمل بين الكراسيات والتلاميذ، والذي لا يستمتع بمجد، لأن صناعته بلا مجد، والدكتور طه بك نفسه قد أسلف الحديث عن الظروف المنكرة التي تكف نشاط المعلمين.

وما أريد أن أزعم أن هؤلاء المدرسين كانوا خليقين أن يصبحوا زعماء في الأدب والسياسة والاجتماع، لو لم تكن أمامهم هذه الأعباء، أو لم يتفرغوا للأدب كما تفرغ له الزعماء الذين ذكرهم الدكتور؛ فأننا لا أغالط وأداخل ولا أغش نفسي ونفوس القراء، وأنا أعلم أن هؤلاء الزعماء الذين ذكرهم الدكتور: سعد زغلول⁽²⁾،

(1) زكي مبارك [1313-1371هـ 1895-1952م] كاتب وشاعر وناقد أدبي، حصل على العديد من رسائل الدكتوراه من مصر وباريس. واشتهر بمعاركه الفكرية والأدبية. وحارس التدريس بمصر والعراق. ومن أعماله الأدبية الشهيرة «ليلي المريضة بالعراق».

(2) سعد زغلول باشا [1273-1346هـ 1857-1927م] قائد ثورة سنة 1919م، وزعيم الأمة. تخرَّج في الأزهر، وعمل بالمحاماة والقضاء والوزارة - وزيرًا ورئيسًا - ورأس مجلس النواب.

(4) ، ومحمد عبده ، والعقاد ، وهيكل ، ولطفي السيد، والمازني ،
وأمثالهم ليسوا من صنع المدرسة؛ ولكنهم من صنع الطبيعة،
ومن صنع أنفسهم، ومن صنع القوى المذخورة في ضمير الشعب
كله، فليس لمعهد أن يفاخر بهم دون معهد.

ومع أن هذا المقياس: مقياس التأليف والشهرة لا يصلح،
فنحن نوافق الدكتور عليه، ونحاسب كلية الآداب به.

لقد بدأت كلية الآداب تخرج منذ عام 1928 في عهدها الجديد،
فلتعد موازنة بين المشتركين في النهضة الأدبية من خريجها
أو من خريجي دار العلوم منذ هذا العام: في العدد، وفي نوع
الإنتاج. وقد كنت أريد نشر الأسماء. لولا أنني لست في مقام
الإعلان، ولكن قراءة الصحف والكتب يعلمون.

(1) الشيخ محمد عبده [1266-1323هـ-1849-1905م] أبرز المجتهدين للفكر
الإسلامي ومناهجه في العصر الحديث، امتدت مدرسته الإصلاحية عبر أقطار
العالم الإسلامي. واهتم بفكره الغربيون مع الشرقيين. ويُعد من أبرز من تولى
منصب الإفتاء في مصر.

(2) عباس العقاد [1306-1384هـ-1889-1964م] من كبار الأدباء والكتّاب في
القرن العشرين. وله إسهامات في الشعر. عمل بالسياسة حينًا، واشتهر
بإسلامياته، ومعاركه الفكرية والأدبية.

(3) محمد حسين هيكل باشا [1305-1375هـ-1888-1956م] سياسي ومفكر وكتّاب.
أبدع في التاريخ والحضارة والتراجم. من أشهر أعماله «حياة محمد» و«في منزل
الوحي».

(4) المازني [1306-1368هـ-1889-1949م] أديب وصحفي ومن كتّاب المقالة.
اشتغل بالتعليم زمنًا، وأصبح واحدًا من دعاة التجديد في الأدب والرواية والقصة
القصيرة.

على أن خريجي دار العلوم هم الذين تقوم عليهم كلية الآداب من جهة، ويقوم عليهم الأزهر الجديد من جهة، ثم يقوم على ما كتبوا وترجموا علم ناشئ في مصر هو علم التربية وعلم النفس، وإذا استثنينا كتاب التربية الحديثة للأستاذ المخزنجي، وكتاب مشكلات التربية للأستاذ الهاكع وكتابين للأستاذ قنديل، وثلاثة كتب للأستاذ يعقوب فام - لم يبق في المكتبات، إلا مؤلفات هؤلاء الجنود المجهولين!

بقي أن وزارة المعارف دائبة الشكوى من دار العلوم فليتفضل الدكتور طه حسين بك بالرجوع إلى ما كتبه الأستاذ مؤلف [مستقبل الثقافة في مصر] عن الكيد والتنازع الظاهر والباطن في الديوان، ليعرف علة هذه الشكوى، وعلة هذا الإعلان!

* * *

غرض التعليم العالي

والبحث العلمي

وهنا يخلص الدكتور مرة أخرى من هذه المشاكل الشائكة، ومن الأغراض الموضوعية، فيعود إلى التحليق الذهني، وإلى الصفاء الروحي، وإلى عذوبة العرض وجمال التصوير. فيتحدث عن أغراض التعليم العالي، ويستعرض الآراء المختلفة فيه: من رأي رجل الشارع، إلى المثقفين الممتازين على اختلاف وجهاتهم؛ ويرى أن رجل الشارع أقرب إلى معرفة الغرض من هذا التعليم حين يصوره بأن التعليم فيه تهذيب للعقل وإزالة للجهل، وأن المثقفين الممتازين أجدر بالنجاح في الحياة من الخاملين الجاهلين، وبأن التعليم العالي يؤهل طلابه لشغل المناصب العالية الممتازة.

وليس كل الغرض منه إذن - كما يتصور المثقفون - البحث عن العلم للعلم، ولا مجرد الإنتاج التطبيقي في الحياة العملية. وإنما ينبغي أن يكون جامعاً لهذين الغرضين. وعلى هذا الأساس الواضح يبني الدكتور سياسة التعليم العالي بناءً قوياً، «فكليات الجامعة إذن تقصّر أشنع التقصير في ذات أنفسها وفي ذات الأمة إن هي لم تخرج من الشباب إلا رهباناً يعكفون في مكاتبهم ومعاملهم على البحث الخالص، كما أنها تقصّر في ذات أنفسها وفي العلم والمعرفة وفي ذات الأمة، إن هي لم تخرج من الشباب

إلا طلاب المنافع والمضطرين في كسب العوت... ويسرني أن أذكر
أنني سمعت هذا الرأي مرات في مدرجات دار العلوم قبل سنة
1932 من أساتذة التربية.

ويطلب الدكتور للدولة أن تفسح صدرها لخريجي الجامعة
يشغلون من المناصب ما يناسب دراستهم، ويطلب إليها وإلى
الأمّة والأفراد تشجيع البحث العلمي الخالص ومنح الجامعة ما
تحتاج إليه من المعونة، وينعى بحق على الأثرياء المصريين
الذين لم يفكروا بعد في هذا التشجيع الذي يشهد بحيوية الأمّة.
وانما كانت أول هبة من يد كريم يوناني لتشجيع درس الحضارة
اليونانية في كلية الآداب وهو المسيو «ارستوفرون».

ويعود مرة أخرى لبيان هذا التشجيع، وتنظيم البحث العلمي
نفسه فيقترح اقتراحاً غاية في الجودة: وهو ضم جميع الهيئات
العلمية المختلفة: «المجمع اللغوي، والعلمي المصري، والجمعية
الجغرافية، وجمعية فؤاد الأول للتشريع والاقتصاد، وجمعية فؤاد
الأول للحشرات، ومعهد فؤاد الأول للأحياء المائية، وجمعية
الأطباء، وجمعية المهندسين، والمجمع المصري للثقافة العلمية،
ولجنة التأليف والترجمة والنشر» وأن ينشأ من هذه جميعاً
«المجمع المصري» على مثال المجمع الفرنسي «ويمنح ميزانيات
هذه الجمعيات المتناثرة، ويكون بذلك بيئة علمية راقية» وهو
اقتراح نافع. ما دامت قوائم الجامعة لم تشتد حتى الآن في
البحوث الطبية، ومواردها محدودة لا تسمح لها بالتوسع.

■ مشاكل الجامعة وعلاجها

ويتناول الدكتور حياة الطلبة الصحية والاجتماعية، والبيئة الجامعية، فيصور أسباب النقص فيها بكل تمهل ووضوح. ويصور الإهمال الصحي الذي ينخر في أجسام الطلاب، والإهمال الاجتماعي الذي يطيح بأخلاقهم، والتفكك في البيئة الجامعية الذي لا يحقق شيئاً من الثقافة العامة. وهي لا تقتصر على التخصص، في علم أو علوم، والذي ينفي ما يجب أن يتوافر للجامعي من الصفات الإنسانية الراقية، والآداب المثالية العالية.

حتى إذا فرغ من بيان أوجه النقص في هذا كله، وبيان أوجه الطب لهما جميعاً. بسط لك كفيه بالعوامل الهدامة التي تحول بينه وبين التنفيذ.. هذه العوامل تتلخص في تكتيف الجامعة بالنظام الحكومي المعقد، وبالاعتداء على استقلالها العلمي بين الحين والحين.

وليس التضييق على الجامعة بمفسد فيها الصحة والاجتماع فحسب، ولكنه يتناول شئونها التعليمية كلها، ويتناول تقاليدها الجامعية كلها، ويدخل السياسة وأهواءها إلى حرم الجامعة وحجراتها، فازدحام الطلاب دون توفير ما يجب لهم من المعامل والأساتذة، وإنجاح الطلاب بقوة القانون، والعفو عن المذنبين منهم برغم أحكام التأديب.. وكل شر وكل إفساد، إنما يأتي الجامعة من تدخل السلطة التنفيذية في أخص شئونها.

والحق مع الدكتور في هذا كله، وشكواه من تدخل السلطة التنفيذية في التعليم وشئونه قد لا يحتاج لتعليق منا ولا لبيان، لأن الجميع يشاركونه الرأي فيه، أما شكواه من تدخل وزارة

المالية فهو الذي قد يحتاج إلى الموازنة من كل مثقف، لأن لهذا التدخل وجهًا ظاهريًا من الحجة يجوز على كثيرين.

وزارة المالية في مصر شأنها عجيب. فهي تبتلع اختصاصات الوزارات كلها، وتكاد تشل عمل الوزارات كلها، وتطيل الإجراءات وتعقدتها في الوزارات كلها، بحجة أنها المسئولة عن مالية البلاد! فهي لا تكتفي بالرجوع إليها في النهاية عند تحديد ميزانية كل وزارة؛ وبيان الدرجات والمصروفات والإيرادات في كل وزارة؛ ثم تدع للوزارات المختلفة أن تتصرف في حدود ميزانياتها، وتسيير أمورها في يسر وسرعة كلما رأت حاجة إلى ذلك. بل لا بد أن ترجع إليها في تفاصيل كثيرة كان يجب أن تستقل بها.

وهذا أثر من آثار الاحتلال لا بد أن يمحي، فقد كان المستشار المالي الإنجليزي يريد أن يركز السلطة في يده، وأن يعلم الإنجليزي كل كبيرة وصغيرة تجري في الدولة كلها، عن طريق وزارة المالية؛ فكان هذا النظام المعقد المربك، والآن وقد استقلت البلد، وأصبح كل وزير ككل وزير، وكل وزارة ككل وزارة - يجب أن ترد الحرية للوزارات المختلفة، فتعمل في حدود ميزانياتها التي وافقت عليها المالية - وحسب هذه ضمانًا بذلك - ونزد للآلة الحكومية يسرها ونشاطها وسرعة إجراءاتها، بدل أن نزيدها عسرًا وتعقيدًا، وإذا تم هذا فلن يشكو الدكتور طه بك من هذه الواجهة ولن يشكو سواه.

* * *

المالية فهو الذي قد يحتاج إلى الموازنة من كل مثقف، لأن لهذا التدخل وجهًا ظاهريًا من الحجة يجوز على كثيرين.

وزارة المالية في مصر شأنها عجيب. فهي تبتلع اختصاصات الوزارات كلها، وتكاد تشل عمل الوزارات كلها، وتطيل الإجراءات وتعقد ما في الوزارات كلها، بحجة أنها المسئولة عن مالية البلاد! فهي لا تكتفي بالرجوع إليها في النهاية عند تحديد ميزانية كل وزارة؛ وبيان الدرجات والمصروفات والإيرادات في كل وزارة؛ ثم تدع للوزارات المختلفة أن تتصرف في حدود ميزانياتها، وتسيير أمورها في يسر وسرعة كلما رأت حاجة إلى ذلك. بل لا بد أن ترجع إليها في تفاصيل كثيرة كان يجب أن تستقل بها.

وهذا أثر من آثار الاحتلال لا بد أن يمحي، فقد كان المستشار المالي الإنجليزي يريد أن يركز السلطة في يده، وأن يعلم الإنجليزي كل كبيرة وصغيرة تجري في الدولة كلها، عن طريق وزارة المالية؛ فكان هذا النظام المعقد المربك، والآن وقد استقلت البلد، وأصبح كل وزير ككل وزير، وكل وزارة ككل وزارة - يجب أن ترد الحرية للوزارات المختلفة، فتعمل في حدود ميزانياتها التي وافقت عليها المالية - وحسب هذه ضمانًا بذلك - ونزد للآلة الحكومية يسرها ونشاطها وسرعة إجراءاتها، بدل أن نزيدها عسرًا وتعقيدًا، وإذا تم هذا فلن يشكو الدكتور طه بك من هذه الوجة ولن يشكو سواه.

* * *

التعليم الديني وضماناته

وفي خفة ورشاقة يتناول الدكتور حديث التعليم الديني، وما يجب لصاحبه من تنور الذهن، وثقافة العقل، حتى يستطيع التفاهم مع أبناء الوطن كله، وحتى يستطيع إرشادهم إلى الطريق السوي بأيسر مجهود.

ويرى - كما تقدم - أن تشرف الدولة على مرحلة التعليم العام في الأزهر، ويصور بحق عقلية الأزهر في هذه الأيام وهو ينافس الدولة بتخريج متعلمين منه كالذين تخرجهم، ومنحهم إجازات كإجازاتها، ومطالبته لهم بوظائف من وظائفها، ويرى أن هذه مزاحمة ومنافسة وليست مشاركة: لأن الدولة التي تمثلها وزارة المعارف لا تعلم شيئاً عن ثقافة من يدفعهم الأزهر إليها دفعا، ولم تشترك في تكوين عقليتهم بما يضمن لها أنهم لن يكونوا سبباً في دفع العقلية العامة إلى الوراء.

ولا يقصر الحديث على رجال الدين الإسلامي بل يطالب بالثقافة وبإشراف الدولة كذلك على رجال الدين المسيحي، لأن المسيحيين شركاؤنا في الوطن، فيجب أن نضمن أن رجال دينهم لا يرجعون بهم إلى الوراء. ولا يلقنونهم ثقافة تعارض ما يتلقونه في المدارس العامة. ومن بين ما يطالب به ترجمة الكتاب المقدس ترجمة عربية صحيحة، بعيدة عن الأخطاء.

ونحن معه في ذلك كله معجبين بصراحته وقوة بيانه في جلاء هذه المسائل الشائكة.

الأدب والترجمة

والصحافة والمذيع والخيالة

ويجتاز الدكتور بعد هذا دائرة المدرسة إلى إدارة المجتمع، وإلى النشاط الحر الذي يضطرب فيه أبناء الوطن، فيدعو دعوة جاهرة إلى الإكثار من الترجمة حتى تتصل بالثقافات الإنسانية. ثم يصور في براعة، جهاد رجال الأدب الحديث الذين كانوا رواداً عظاماً لعصر جديد، وما لاقوه في هذا الجهاد الشاق من عنت الأيام، وعنّت الشعب، وعنّت التقاليد والقوانين، وكل ما يحيط بهم، وكيف تغلبوا على هذا كله، ورفعوا رءوسهم شامخين.

وهنا لا يتمالك القارئ نفسه وهو يعجب بهؤلاء الرواد الأبطال الذين أعزوا الأدب واستعزوا. أن يرسل أشد اللعنات على قوم من الطفيليين عبثوا بهذا الجهاد كله، وسخروا من هذا النصر كله، فراحوا يمرغون الأدب في الأوحال، ويقفون بهذا الأدب على الموائد والأعتاب، ويحرقونه قريانا خسيسا لذوي الجاه والسلطان، ويسفون به في المناسبات التافهة التي يفرح بها السوقة والعبيد.

ويرى الدكتور أننا بعد أن ظفرنا بالاستقلال لم ننهج نهجاً جديداً في النهضة الأدبية والعلمية والاجتماعية، ولا نزال كما كنا قبل الاستقلال نسمع جعجعة ولا نرى طحناً، ومع هذا نعيب الأدباء والعلماء بقلة الإنتاج.

والدكتور هنا مقتصد - على غير عادته - في تصوير هذا العبث الذي نلج فيه، فأريد أن أسأل: أين الأحزاب المصرية، وأين برامجها الجديدة، وأين أراؤها في مشاكلنا الاجتماعية والاقتصادية والتعليمية؟ إن لكل حزب في أوروبا التي نقلدها رأياً تفصيلياً في كل هذه المسائل، ومن هنا تختلف سياسة كل حزب في صبغ البلاد وصبغ المناهج الدراسية بخطته وغايته، فيكون إذ ذاك معنى لاختلاف الجامعات في طرائقها وعقلياتها. واختلاف الإنتاج الأدبي والفني في وجهته وقصده، ويكون ذلك النشاط العقلي الخصب الذي يغمر البلاد الحية - فمتى يا ترى يكون لدينا أحزاب؟

ثم يدرج الدكتور إلى الصحافة والخيالة والمذيع فيرى أن ظروف مصر الاجتماعية توجب تنظيم حريتها، على ألا تكون إدارة المطبوعات أو إدارة الأمن العام هي التي تتولى ذلك. بل يوجب أن تنظم هيئات من المثقفين ثقافة عالية متنوعة للإشراف عليها، وذلك حتى لا تغلو هذه الهيئات في الحد من حريتها، وحتى توجهها الوجهة الصالحة الأمينة على نهضة البلاد ومستقبلها.

ولا يقصر الدكتور في إظهار عطفه على المسرح لأنه أداة راقية للثقافة فيجب أن نمنع عنه «خطر مزاحمة الخيالة له؛ لأنه أقرب منها إلى الفن الجميل، وهو يجمع بين جمال المنظر وسحره وجمال الأدب. وسحر الأسلوب في الحوار.

* * *

كلمة ختامية

وقد حرصت على استعراض رأي الدكتور في هذه الشئون كلها، لأن هذا أدنى إلى توضيح ذلك العمل الشامل الذي قام به في كتابه القيم. وعلى حُسن فهمه لعوامل الثقافة في كل بيئة وكل مكان. وقليل منا من يربط هكذا بين وسائل الثقافة جميعاً. وفي النهاية أتوجه إلى الدكتور بإعجابي بذلك المجهود العنيف، وبذلك الدستور الجامع، الذي قدمه للدولة، ولعلها لا تكسل عن مراجعته ومناقشته. فهذا خليق أن يزوج بعقليتها التعليمية إلى الأمام خطوات على هدي هذا النور الوهاج.

* * *

المصادر والمراجع

- د. أحمد حسين الصاوي: [المعلم يعقوب بين الحقيقة والأسطورة] طبعة القاهرة 1986م.
- الأفغاني - جمال الدين: [الأعمال الكاملة] دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة. طبعة القاهرة 1968م.
- الجبرتي: [عجائب الآثار في التراجم والأخبار] تحقيق: حسن محمد جوهر، عمر الدسوقي طبعة القاهرة 1969م.
- : [مظهر التقديس بزوال دولة الفرنسيين] تحقيق: حسن محمد جوهر، عمر الدسوقي، السيد إبراهيم سالم - طبعة القاهرة 1965م.
- سلامة موسى: [اليوم والغد] طبعة القاهرة 1928م.
- السنهوري باشا - عبد الرزاق: [إسلاميات السنهوري باشا] دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة طبعة دار الوفاء 2006م.
- سيد قطب: [معالم في الطريق] طبعة دار الشروق - القاهرة 1980م.
- د. طه حسين: [مستقبل الثقافة في مصر] طبعة القاهرة 1938م.
- : [الفتنة الكبرى] طبعة القاهرة 1984م.
- : [قادة الفكر] طبعة القاهرة 1925م.
- : [من الشاطئ الآخر] ترجمة: عبد الرشيد الصادق المحمودي - طبعة بيروت 1990م.

الطهطاوي - رفاعة رافع: [الأعمال الكاملة] دراسة وتحقيق د.
محمد عمارة. طبعة بيروت 1973م.

علي عبد الرازق: [الإسلام وأصول الحكم] طبعة القاهرة
1925م.

د. محمد حافظ دياب: [سيد قطب: الخطاب والأيدولوجيا]
طبعة القاهرة 1987م.

د. محمد الدسوقي: [طه حسين يتحدث عن أعلام عصره] طبعة
القاهرة 1992م.

محمد عبده - الأستاذ الإمام: [الأعمال الكاملة] دراسة وتحقيق:
د. محمد عمارة. طبعة بيروت 1972م، والقاهرة 1993م و2006م.

د. محمد عمارة: [الصحوّة الإسلاميّة أو التحدي الحضاري]
طبعة القاهرة 1991م.

: [مقالات الغلو الديني واللا ديني] طبعة القاهرة 2004م.

هيكل باشا - محمد حسين: [حياة محمد] طبعة القاهرة
1981م.

: [في منزل الوحي] طبعة القاهرة 1967م.

وثائق ودوريات

■ محاضر لجنة الحريات - بمشروع وضع دستور جديد لمصر
1953م. - طبعة وزارة الإرشاد القومي، القاهرة - بدون تاريخ.

- صحيفة «أفاق عربية» مقال: د. جابر فميحة - عدد 27 - 12 - 2001م.
- مجلة «الحج والعمرة».. مكة - المقال الافتتاحي - حسين محمد بافقيه - عددي محرم وصفر 1426هـ.
- صحيفة «الحياة» - لندن - مقال عبد الله إبراهيم - عدد 29 - 12 - 2007م.
- صحيفة «دار العلوم» دراسة سيد قطب «نقد كتاب مستقبل الثقافة في مصر لطله حسين» عددي إبريل 1939م وأكتوبر 2001م.
- صحيفة «وطني» مقال عادل جندي «المخططات الخطيرة» في 2 - 7 - 2006.

الفهرس

- تقديم 3
- 1- أولى محاولات الاحتواء والاختراق 9
- 2- الانتماء الحضاري عند رفاة الطهطاوي 19
- 3- الإحياء الإسلامي عند جمال الدين الأفغاني 24
- 4- الإصلاح بالإسلام عند الشيخ محمد عبده 30
- 5- السنهوري باشا وبعث المدنية الإسلامية 33
- 6- الانتماء للإسلام - لا للغرب.. أو الفرعونية - عند
هيكل باشا 37
- 7- الكفر بالشرق.. والذوبان في الغرب عند سلامة موسى 47
- 8- طه حسين والانتماء للمدنية الأوربية 53
- 9- الانتماء الحضاري بين سيد قطب وطه حسين 59
- 10- الإياب الفكري للدكتور طه حسين 70
- 11- وعن سيد قطب 78

12- النص - المحقق - لدراسة سيد قطب [نقد كتاب

- 87 مستقبل الثقافة في مصر لطفه حسين]
- 89 تمهيد
- 93 مصر: شرقية أم غربية؟
- 102 الإسلام والمسيحية وأثرهما في أمم البحر الأبيض ..
- 110 مصر والحضارة الأوروبية الحديثة
- 114 روحانية الشرق ومادية الغرب
- 118 الدولة والتعليم العام
- 134 قضية اللغة العربية وتدرسيها
- 152 غرض التعليم العالي والبحث العلمي
- 156 التعليم الديني وضمائنه
- 157 الأدب والترجمة والصحافة والمذيع والخيالة
- 159 كلمة ختامية
- 160 المصادر والمراجع

أحدث إصدارات

الدكتور

محمد عمارة

ضمن سلسلة (في التنوير الإسلامي)

- | | |
|----------------|--|
| د . محمد عمارة | 1 - الصحوة الإسلامية في عيون غربية . |
| د . محمد عمارة | 2 - الغرب والإسلام . |
| د . محمد عمارة | 3 - أبو حيان التوحيدي . |
| د . محمد عمارة | 4 - ابن رشد بين الغرب والإسلام . |
| د . محمد عمارة | 5 - الانتماء الثقافي . |
| د . محمد عمارة | 6 - التعددية .. الرؤية الإسلامية والتحديات . |
| د . محمد عمارة | 7 - صراع القيم بين الغرب والإسلام . |
| د . محمد عمارة | 8 - د . يوسف القرضاوي ، المدرسة الفكرية والمشروع الفكري . |
| د . محمد عمارة | 9 - عندما دخلت مصر في دين الله . |
| د . محمد عمارة | 10 - الحركات الإسلامية رؤية نقدية . |
| د . محمد عمارة | 11 - المنهاج العقلي . |
| د . محمد عمارة | 12 - النموذج الثقافي . |
| د . محمد عمارة | 13 - تجديد الدنيا بتجديد الدين . |
| د . محمد عمارة | 14 - الثورات والمتغيرات في اليقظة الإسلامية الحديثة . |
| د . محمد عمارة | 15 - نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم . |
| د . محمد عمارة | 16 - التقدم والإصلاح بالتنوير الغربي أم بالتجديد؟ |
| د . محمد عمارة | 17 - إسلامية الصراع حول القدس وفلسطين . |
| د . محمد عمارة | 18 - الحضارات العالمية .. تدافع أم صراع؟ |
| د . محمد عمارة | 19 - الجملة الفرنسية في الميزان . |
| د . محمد عمارة | 20 - الأقليات الدينية والقومية .. تنوع ووحدة أم تقنيت واختراق؟ |
| د . محمد عمارة | 21 - مخاطر العولمة على الهوية الثقافية . |
| د . محمد عمارة | 22 - الغناء والموسيقى خلال أم حرام؟ |
| د . محمد عمارة | 23 - هل المسلمون أمة واحدة؟ |



د . محمد عمارة	46- إسلامية المعرفة ماذا تعني؟
د . محمد عمارة	47- الإسلام وضرورة التغيير .
د . محمد عمارة	48- النص الإسلامي بين التاريخية .. والاجتهاد .. والجمود .
د . محمد عمارة	49- الإبداع الفكري والخصوصية الحضارية .
د . محمد عمارة	50- الإسلام والمرأة في رأي الإمام محمد عبده .
د . محمد عمارة	51- الإصلاح الديني في القرن العشرين (الشيخ المراغي نموذجاً) .
د . محمد عمارة	52- فكر التنوير بين العلمانيين والإسلاميين .
فضيلة الشيخ جاد الحق علي جاد الحق	53- اجتهاد الرسول ﷺ وقضاؤه وقنواؤه .
تقديم / د . محمد عمارة	
د . محمد عمارة	54- شبهات واجابات حول مكانة المرأة في الإسلام .
د . محمد عمارة	55- السلفية واحدة؟ .. أم سلفيات؟

إصدارات أخرى للدكتور / محمد عمارة

- معركة المصطلحات بين الغرب والإسلام .
- القدس الشريف رمز الصراع وبوابة الانتصار .
- الوسيط في المذاهب والمصطلحات الإسلامية .
- الإصلاح بالإسلام .
- الإسلام والتحديات المعاصرة .
- الإسلام في مواجهة التحديات .
- الاستقلال الحضاري .
- الفارة الجديدة على الإسلام .
- مقام العقل في الإسلام .
- الضريبة القانية .
- الانتماء الحضاري للغرب؟ .. أم الإسلام؟



الانتماء الحضاري للغرب؟ .. أم للإسلام؟

- في المأثور النبوي:
"أَنْ الْوَلَاءَ لِحُمَةِ كَلْحُمَةِ التَّسَبُّبِ لَا يُبَاع وَلَا يُوهَبُ".
- ومنذ الحملة الفرنسية على بلادنا - قبل قرنين من
الزمان - زاحمت المرجعية الحضارية الغربية. الواقعة -
وهي علمانية لا دينية - زاحمت مرجعية الإسلام.
- ولقد انقسم المفكرون والمثقفون والساسة حول
الانتماء الطبيعي لأمتنا في مشروع نهضتها المنشود...
أهو الانتماء للغرب.. أم للإسلام؟
- ولأن الانتماء الحضاري - في الأمة - هو كالتسبب - بالنسبة
للإنسان - كانت قضية الانتماء الحضاري هي معيار التمييز
بين أصحاب النسب الشرعي الصريح.. وبين "اللُّقْطَاءِ" ..
بين أبناء الإسلام وأبناء نابليون!!
- ولاستعراض هذه القضية.. وموقف العلماء والمفكرين
منها - على امتداد القرنين الماضيين - يصدر هذا الكتاب.

الناشر

